# سـورة الأعراف

عدد آيها خمس ومائتان ، وهى مكية، وقد روى أنها نزلت قبل سورة الأنعام ، وأنها نزلت مثلها دفعة واحدة، لكن سورة الأنعام أجمع لما اشتركت فيه السورتان، وهو : أصول العقائد وكليات الدين التى قدمنا القول فيها ، وهى كالشرح والبيان لما أوجز فى الأنعام ، ولا سيما عموم بعثة النبى صلى الله عليه وسلم وقصص الرسل قبله وأحوال أقوامهم ، وقد اشتملت سورة الأنعام على بيان الخلق كما قال : « هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ » و بيان القرون كما قال : « كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ » وعلى ذكر المرسلين وتعداد الكثير منهم ، وجاءت هذه مفصلة لذلك ، فبسطت فيها قصة آدم ، وفصلت قصص المرسلين وأممهم وكيفية هلاكهم أكمل تفصيل .

---

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ (١) كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ ، لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٣) .

## شرح المفردات

(الٓمٓصٓ) هذه حروف تكتب بصورة كلمة من ذوات الأربعة الأحرف ، لكنا نقرؤها بأسماء هذه الأحرف فنقول : ألف . لام . ميم . صاد .

وحكمة افتتاح هذه السورة وأمثالها بأسماء الحروف التى ليس لها معنى مفهوم غير مسماها الذى تدل عليه — تنبيه السامع إلى ما سيلقى إليه بعد هذا الصوت من الكلام حتى لا يفوته منه شىء ، فكأنه أداة استفتاح بمنزلة ألا وها التنبيه .

وبالاستقراء نرى أن السور التى بدئت بها وبذكر الكتاب ، هى التى نزلت بمكة لدعوة المشركين إلى الإسلام وإثبات النبوة والوحى ، وما نزل منها بالمدينة كالزهراوين البقرة وآل عمران فالدعوة فيه موجهة إلى أهل الكتاب ، وهكذا الحال فى السور: مريم والعنكبوت والروم وص وق ، فإن مافيها يتعلق بإثبات النبوة والكتاب كالفتنة فى الدين بإيذاء الضعفاء لإرجاعهم عن دينهم بالقوة القاهرة ، والإنباء بقصص فارس والروم ونصر الله للمؤمنين على المشركين ، وكان هذا من أظهر المعجزات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

ويرى بعض العلماء أنها أسماء للسور ، والأسماء المرتجلة لا تعلل ، كما يرى آخرون أن الحكمة فى ذكرها بيان إعجاز القرآن بالإشارة إلى أنه مركب من هذه الأحرف المفردة التى يتألف منها الكلام العربى ومع ذلك لايستطيعون أن يأتوا بمثله ، ليؤديهم النظر إلى أنه ليس من كلام البشر ، بل من كلام خالق القوى والقدر ؛ والحرج : الضيق، من عاقبة المخالفة ، والذكرى : التذكر النافع والموعظة المؤثرة ، وولاية الله لعباده : تولى أمورهم فيما لايصل إليه كسبهم من هدايتهم ونصرهم على أعدائهم ، وشرعه لهم عبادته وبيان الحرام والحلال ، و ( ما ) فى قوله قليلا ما ـ حرف يؤكد معنى القلة ، وتذكرون : أصله تتذكرون حذفت منه إحدى التاءين .

## الإيضاح

( كتاب أنزل إليك ) أى هذا القرآن كتاب أنزل إليك من عند ربك ، ووصفه بالإنزال من عند الله ـ دال على عظيم قدره وقدر من أنزل إليه .

( فلا يكن فى صدرك حرج منه ) أى لايضق صدرك من الإنذار به وإبلاغه من أمرت بإبلاغه إليهم ، واصبر لأمرى فيما حملتك من عبء النبوة كما صبر أولو العزم من الرسل فإن الله معك .

فقد كلف صلى الله عليه وسلم هداية الثقلين وكان من المتوقع أن يلقى أشد الإيذاء

والمقاومة والطعن والإعراض، وتلك أمور توجب ضيق الصدر كما قال فى سورة الحجر: « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ » وقال فى سورة النحل : « وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ ، وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، وَلاَ تَكُ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ » وقال فى سورة هود : « فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ » .

و يراد بالنهى عن مثل هذا الأمر الطبيعى — الاجتهاد فى مقاومته والتسلى عنه بوعد الله ، والتأسى بمن سبقه من الرسل أولى العزم صلوات الله عليهم أجمعين .

( لتنذر به وذكرى للمؤمنين ) والمراد بالمؤمنين هنا من كتب الله لهم الإيمان ، سواء أكانوا مؤمنين حين نزول هذه السورة أم لا .

والخلاصة — إنه أنزل إليك الكتاب لتنذر به قومك وسائر الناس ، وتذكر به أهل الإيمان ذكرى نافعة مؤثرة .

( اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ) أى قل لهم أيها الرسول : اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم وخالقكم ومدبر أموركم ، فهو وحده الذى له الحق فى شرع الدين لكم وفرض العبادات عليكم ، وتحليل ما ينفعكم وتحريم ما يضركم ، إذ هو العليم بما فيه الفائدة أو الضر لكم .

( ولا تتبعوا من دونه أولياء ) أى ولا تتخذوا من أنفسكم ولا من الشياطين الذين يوسوسون لكم — أولياء تولونهم أموركم وتطيعونهم فيما يرومون منكم من ضلال التقاليد والابتداع فى الدين ، فيضعوا لكم أحكام الحرام والحلال زاعمين أنهم أعلم منكم ، فيجب عليكم تقليدهم ، ولا أولياء ينجونكم من الجزاء على ذنوبكم وجلب النفع لكم أو رفع الضر عنكم ، زاعمين أنهم يقربونكم إلى الله زلفى ، أو يشفعون لكم عنده فى الآخرة .

والخلاصة — إن الله وحده هو الذى يتولى أمر العباد بالتدبير والخلق والتشريع، وله وحده الخلق والأمر و بيده النفع والضر .

( قليلا ما تذكرون ) أى إنكم تتذكرون قليلا لا كثيرا ما يجب أن يعلم الرب سبحانه ، وما يحظر أن يشرك معه فيه غيره ، وقد يكون المراد — قليلا ما تتعظون بما توعظون به ، فترجعون عن تقاليدكم وأهوائكم إلى ما أنزل إليكم من ربكم .

وفى هذا إيماء إلى النهى عن طاعة الخلق فى أمر الدين غير ما أنزل الله من وحيه كما فعل أهل الكتاب فى طاعة أحبارهم ورهبانهم فيما أحلوا لهم وزادوا على الوحى من العبادات ، وما حرموا عليهم من المباحات كما جاء فى قوله : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ » فكل من أطاع أحدا فى حكم شرعى لم ينزله الله فقد اتخذه ربا .

واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه من بيان الدين — داخل فى عموم ما أنزل إلينا على رسوله ، لأنه تعالى أمرنا باتباعه وطاعته وأخبرنا أنه مبين لما نزل إليه كما قال : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » . وقد صح فى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال : «إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، و إذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر» رواه مسلم عن رافع بن خديج فى مسألة تأبير النخل ( تلقيح النخلة بطلع الذكر ) .

---

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) .

## شرح المفردات

( كم ) اسم يفيد التكثير ، والقرية : تطلق على الموضع الذى يجتمع فيه الناس وعلى الناس معا ، وتطلق على كل منهما كما جاء فى قوله : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ » أى

أهل القرية ، والقرية هنا تصلح لأن يراد بها القوم أنفسهم ، وأن يراد بها المكان ، لأنه يهلك كما يهلك أهله ، والبيات : الإغارة على العدو ليلا والإيقاع به على غرة ، والبأس : العذاب ، والقائلون : هم الذين ينامون استراحة وسط النهار أى حين القائلة يقال : قال يقيل قيلا وقيلولة ، والدعوى ما يدعيه الإنسان ، وتطلق على القول أيضا .

## المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه فيما سلف أنه أنزل الكتاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لينذر به الناس ويكون موعظة وذكرى لأهل الإيمان ، وأنه طلب إليه أن يأمر الناس باتباع ما أنزل إليهم من ربهم وألا يتبعوا من دونه أحدا يتولونه فى أمر التشريع أردف هذا بالتخويف من عاقبة المخالفة لذلك ولما يتبعه من أصول الدين وفروعه ، والتذكير بما حل بالأمم قبلهم بسبب إعراضهم عن الدين وإصرارهم على أباطيل أوليائهم .

## الإيضاح

( وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون ) أى وكثير من القرى أهلكناها لعصيانها رسلها فيما جاءوها به من عند ربها ، وكان هلاكها إما حين البيات ليلا كقوم لوط ، وإما حين القائلة وهم آمنون نهارا كقوم شعيب ، وكلا الوقتين وقت دعة واستراحة لم تكن تنتظر فيه كل منهما هلاكا ولا عذابا ، فلا يجمل بالعاقل أن يأمن غدر الليالى ولا خدع الأيام ولا يغتر بالرخاء فيعده علامة على أنه مستحق له فهو مظنة الدوام .

وفى ذلك تعريض بغرور كفار قريش بقوتهم وثروتهم وعزهم وعصبيتهم ، وأن ذلك من دلائل رضا الله عنهم كما قال تعالى حكاية عنهم : « وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » .

( فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين ) أى فما كان دعاؤهم واستغاثتهم حين جاءهم العذاب إلا أن اعترفوا بظلمهم فيما كانوا عليه ، وشهدوا ببطلانه ، تحسرا وندامة وطمعا فى الخلاص ، ولكن أنى ينفع الندم ، وقد أزفت الآزفة ، ليس لها من دون الله كاشفة ؟ .

وفى الآية من العبرة — أن كل مذنب يقع عليه عقاب ذنب فعله فى الدنيا ، يعترف بجرمه و يندم على ما فرط منه إذا هو علم أنه سبب العقاب ، وقلما يشعر المرء بعقاب فى الدنيا على الذنوب ، لأنه يأتى على التراخى غالبا فالأمراض التى تتولد من شرب الخمر كأمراض القلب والكبد والجهاز التناسلى وضعف النسل واستعداده للأمراض إلى نحو ذلك من الأمراض الجسدية والعقلية تحصل ببطء ، وقلما يعرفها غير الأطباء ؛ ومن ثم لا يشعر بها السكارى و إنما يشعرون بما يعقب الشرب من صداع وغثيان يسهل عليهم احتماله وترجيح لذة النشوة عليه .

إلى أنه لو علمها بعدُ فقلما يفيد علمه بها شيئا بعد بلوغ تأثيرها هذه الدرجة فى السكور حتى تحمله على التوبة ، إذ داء الخمار يزمن ، وحب السكر يضعف الإرادة .

وعقاب الأفراد على الذنوب فى الدنيا لايطرد ، كما يطرد فى الأمم ، فعقابها فى الدنيا على ما تجترح — حتم لا شبهة فيه ، ولكن له آجال ومواقيت أطول مما يكون فى الأفراد ، ويختلف باختلاف أحوال الأمة فى القوة والضعف ، فأمة نشأ فيها الظلم والطغيان وعدمت الثقة بين أفرادها واختل نظام الأمن فيها وكثر فيها الفسق والفجور — تسوء حالها وتنحل قواها وتتفكك روابط الألفة والمودة بين أفرادها وتضعف منعتها ، فتحسب أهلها جميعا وقلوبهم شتى ، ولا يزال أمرها يأخذ فى التدهور والفساد حتى يستولى عليها العدو القاهر و يمتص ثروتها و يجعل أهلها أذلة مستضعفين ، وقلما تشعر أمة بعاقبة ذنوبها قبل وقوع العقوبة ، كما لايجديها نفعا أن يقول حكماؤها : يا و يلنا إنا كنا ظالمين . وربما عمها الجهل ، وران على قلوبها الفساد فلا تشعر بأن ما حل بها إنما كان جزاء وفاقا ، ونكالا من الله على ما قدمت

من عمل ، واقترفت من إثم ، فترضى باستذلال الغاصب كما رضيت من قبل بما اجترحت من الآثام والذنوب ، وقد يكون ذلك سبيلا لانقراضها بما يعقبه الفسق والفجور من قلة النسل ، ولا سيما إذا فشا الزنا والسكر ، أو تبقى فيها بقية تدَّغم فى الكثرة الغالبة ، فلا تعد أمة على سبيل الاستقلال ، وربما توالت عليها المصايب والآثام حتى تضيق بها ذرعا فتطلب لها مخرجا وترجع إلى الوراء لتبحث عن أسبابها فلا تجدها إلا فى أنفسها كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ » .

وإذا أرادت لها علاجا وتمنت لها دواء من دائها الدوى وتلفتت يمنة ويسرة سرا وعلانية لم تجده إلا ما وصفه الكتاب الكريم : « إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » ولن يكون ذلك إلا بالإقلاع عما ترتكب من الجرائم والتوبة الصادقة والعمل الطيب الذى به تصلح القلوب وتستقيم الأمور ، وها كم ما قاله العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم حين توسل به عمر والصحابة بتقديمه لصلاة الاستسقاء لما انقطع الغيث وعم الجدب : اللهم إنه لا ينزل بلاء إلا بذنب ولا يرفع إلا بتوبة .

وفى هذا عبرة أيما عبرة للشعوب الإسلامية التى ثلت عروشها ، وخوت صروح عظمتها ، وقد كانت أجدر بهدى القرآن ، ولكن أنَّى لها بذلك ، وقد هجره الخاصة وتبعهم العامة ، إذ جهلوا أحكامه وحكمه ، حتى لقد بلغ الأمر بنابتتها ، ألا ترى سببا لركود ريحها إلا اتباع القرآن والعمل بهذا الدين : « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » .

---

فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ

فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩).

## المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه الرسل فى الآية السالفة بالتبليغ وأمر الأمم بالقبول والمتابعة، وذكرهم بعذاب الأمم التى عاندت الرسل فى الدنيا — قفى على ذلك بذكر العذاب الآجل يوم القيامة ، وأنه فى ذلك اليوم يسأل كل إنسان عن عمله .

## الإيضاح

( فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ) الذين أرسل إليهم : هم جميع الأمم الذين بلغتهم دعوة الرسل ، فيسأل تعالى كل فرد منهم فى الآخرة عن رسوله إليه وعن تبليغه لآياته ، ويسأل المرسلين عن تبليغهم وإجابة أقوامهم لهم وعما عملوا من إيمان وكفر ، وقد فصل هذا الإجمال فى آيات أخرى كقوله : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ؟ » وقوله : « وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ » وقوله فى سورة الحجر : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

قال ابن عباس : نسأل الناس عما أجابوا المرسلين ، ونسأل المرسلين عما بلغوه ، والمراد بالسؤال حينئذ تقريع الكفار وتوبيخهم .

ولا مخالفة بين هذه الآية التى تثبت السؤال العام وبين قوله تعالى : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ » وقوله : « وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ » لأن ليوم القيامة مواقف متعددة ، والسؤال والجواب والاعتذار يكون فى بعضها دون بعض .

وقال الرازى : إنهم لا يسألون عن الأعمال لأن الكتب قد أحصتها ، لكنهم يسألون عن الدواعى التى دعتهم إلى الأعمال ، وعن الصوارف التى صرفتهم عنها اهـ. يريد أنهم يسألون عن الموانع التى حالت بينهم و بين عمل ما طلب منهم عمله ، أو فعل ما طلب إليهم تركه .

( فلنقصنّ عليهم بعلم ) القص تتبع الأثر إما بالعمل كما فى قوله حكاية عن أم موسى « وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ » و إما بالقول كما فى قوله : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ » .

أى فلنقصن على الرسل وعلى أقوامهم الذين أرسلوا إليهم كل ما وقع من الفريقين قصصا بعلم منا محيط بكل ما كان منهم ، فلا يغرب عنا مثقال ذرة ، وقد روى عن ابن عباس أنه يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون .

( وما كنا غائبين ) عنهم فى وقت من الأوقات ولا حال من الأحوال ، بل كنا معهم نسمع ما يقولون ونبصر ما يعملون ، ونحيط علما بما يسرون وما يعلنون ، كما قال تعالى : « وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ، وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا » .

وفى هذا إيماء إلى أن السؤال لم يكن للاستعلام والاستبانة لشىء مجهول عنه تعالى ، بل للإعلام والإخبار بما حدث منهم توبيخا لهم وتأنيبا على إهمالهم .

وهذا القصص هو الذى يكون به الحساب و يتلوه الجزاء ، وقد دل عليه الكتاب الكريم فى مواضع عدة ، ودلت عليه السنة ؛ فمن ذلك ما رواه ابن عمر قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راع يسأل عن الناس ، والرجل راع يسأل عن أهله ، والمرأة تسأل عن بيت زوجها ، والعبد يسأل عن مال سيده » وما رواه المقدام قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يكون رجل على قوم إلا جاء يقدمهم يوم القيامة ، بين يديه راية

يحملها وهم يتبعونه ، فيسأل عنهم و يسألون عنه » وما رواه الترمذى عن أبى بَرْزَةَ الأسلمى مرفوعا : « لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيم أفناه ، وعن علمه فيم عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسمه فيم أبلاه ؟ » وروى الحاكم وابن ماجه حديث شدّاد بن أوس مرفوعا : « الكيّس من دان ـ حاسب ـ نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » .

( والوزن يومئذ الحق ) الوزن عمل يراد به تعرّف مقدار الشىء بالميزان والقسطاس ، وقد يطلق كل من الميزان والقسطاس على العدل كقوله : « هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ » وقوله فى الرسل : « وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ والمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ » .

أى والوزن فى ذلك اليوم الذى يسأل الله فيه الرسل والأمم ، ويقص عليهم كل ما كان منهم ـ هو الحق أى الذى تعرف به حقائق الأمور وما يستحقه كل أحد من ثواب وعقاب .

( فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ) أى فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان وكثرة الحسنات فأولئك هم الفائزون بالنجاة من العذاب ، والحائزون للنعيم فى دار الثواب .

( ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ) أى ومن خفت موازين أعماله بسبب كفره وكثرة ما اجترح من السيئات ، فأولئك الذين خسروا أنفسهم ، إذ حرموها السعادة التى كانت مستعدة لها لو لم يفسدوا فطرتها بالكفر والمعاصى و إصرارهم على ذلك إلى نهاية أعمارهم .

والخلاصة — إن المؤمنين على تفاوت درجاتهم فى الأعمال هم المفلحون ، فمن مات مؤمنا فهو مفلح و إن عذب على بعض ذنوبه بمقدارها ، و إن الكافرين على تفاوت دركاتهم هم فى خسران عظيم .

وهناك فريق ثالث استوت حسناتهم وسيئاتهم وهم أصحاب الأعراف وسيأتى ذكرهم بعد .

وقد اختلف العلماء فى الوزن والموازين ، هل المراد بها ظهور العدل التام فى تقدير الجزاء على الأعمال التى تصلح الأنفس وتزكيها أو تفسدها وتدسيها ؛ بذلك قال مجاهد والضحاك والأعمش ، أو أن هناك وزنا حقيقيا حكمته إظهار علم الله تعالى بأعمال عباده وعدله فى جزائهم عليها ، وبهذا قال الجمهور ، قال أبو إسحاق الزجاج : أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة ، وأن الميزان له لسان وكفتان ويميل بالأعمال .

وقال القرطبى : التى توزن هى الصحائف التى تكتب فيها الأعمال .

والحق أن التى توزن هى الأعمال ، فقد أخرج أبو داود والترمذى عن جابر مرفوعا : « توضع الموازين يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات ، فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال حبة دخل الجنة ، ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال حبة دخل النار ، قيل ومن استوت حسناته وسيئاته ؟ قال أولئك أصحاب الأعراف » .

والذى عليه المعول فى الإيمان بعالم الغيب : أن كل ما ثبت من أخباره فى الكتاب والسنة فهو حق لا ريب فيه ، فنؤمن به ولا نحكم رأينا فى كيفيته ، فنؤمن بأن فى الآخرة وزنا للأعمال بميزان يليق بعالم الآخرة توزن به الأعمال والإيمان والأخلاق ، ولا نبحث عن صورته وكيفيته .

وإذا كان العلم الحديث كشف موازين للحر والبرد واتجاه الرياح والأمطار ، أفيعجز القادر على كل شىء عن وضع موازين للأعمال النفسية والبدنية التى سماها الدين الحسنات والسيئات ، بما تحدثه فى الأنفس من الأخلاق والصفات الثابتة فيها ؟

---

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِى الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ (١٠) .

## شرح المفردات

مكناكم فى الأرض، أى جعلنا لكم فيها أمكنة تتبوءونها وتمكنون من الإقامة بها ، والمعايش واحدها معيشة: وهى ما تكون به العيشة والحياة الجسمانية الحيوانية من المطاعم والمشارب وغيرها ، وهى ضربان :

(١) ما يحصل بخلق الله ابتداء كالثمار وغيرها .

(٢) ما يحدث بالاكتساب .

وكلاهما إنما يحصل بفضل الله وإقداره وتمكينه ، فيكون الكل إنعاما من الله ، وذلك مما يوجب طاعته .

## المعنى الجملى

بعد أن بين فيما سلف أن واضع الدين هو الله فيجب اتباعه دون ما يأمر به غيره من الأولياء والشفعاء ، وقفى على ذلك بذكر عذاب الدنيا بقوله : وكم من قرية أهلكناها ، وذكر عذاب الآخرة بقوله : فلنسألن الذين أرسل إليهم ، وبقوله : والوزن يومئذ الحق .

أردف ذلك بذكر نعمه على عباده بتمكينهم فى الأرض وخلق أنواع المعايش فيها ، مع بيان أن كثرة النعم توجب عليهم الطاعة .

## الإيضاح

( ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش ) أى ولقد جعلنا لكم فيها أوطانا تتبوءونها وتستقرون فيها ، وجعلنا لكم فيها معايش تعيشون بها أيام حياتكم من مطاعم ومشارب ، نعمة منى عليكم ، وإحسانا منى إليكم ، وأنشأنا لكم فيها ضروبا شتى من المنافع التى تعيشون بها عيشة راضية : من نبات وأنعام وطير وسمك ومياه عذبة وأشربة مختلفة الطعوم والروائح ، ووسائل مختلفة للتنقل والارتحال من

جهة إلى أخرى تتقدم بتقدم العلم والاختراع من طيارات وسيارات وقطر برية وسفن بحرية ، وسبل متعددة لمداواة المرضى بالعقاقير المختلفة على يد نطس الأطباء إلى نحو ذلك .

وكل ذلك يقتضى منكم الشكر الكثير ، ولكن الشكر من العباد قليل كما قال : « وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ » ومن ثم عقب هذا بقوله :
( قليلا ما تشكرون ) أى وأنتم قليلو الشكر على هذه النعم التى أنعمت بها عليكم ، لا كثيروه كثرة تناسب كثرة الانتفاع بها ، فقد عبدتم سواى واتخذتم الأولياء والشفعاء من دونى .

وشكر النعمة يكون بمعرفة المنعم بها ثم حمده والثناء عليه بما هو له أهل ، ثم التصرف فيها بما يحبه ويرضاه ، وتحقيق الأغراض التى أسداها لأجلها .

فهذه النعم المعيشية ما خلقت إلا لحفظ الحياة الجسمانية للأفراد والجماعات ، والاستعانة بذلك على حفظ الحياة الروحية التى بها تزكو الأنفس ، وتستعد للحياة الأخرى الأبدية التى فيها النعيم المقيم والسعادة المستقرة إلى غير نهاية .

---

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ

شاكرين (١٧) قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين (١٨) .

## شرح المفردات

الخلق: التقدير، يقال خلق الخياط الثوب: أى قدره قبل قطعه ، وخلق الله الخلق: أوجدهم على تقدير أوجبته الحكمة ، والهبوط: الانحدار والسقوط من مكان إلى ما دونه أو من منزلة إلى ما دونها ، فهو إما حسى و إما معنوى، والتكبر: جعل الإنسان نفسه أكبر مما هى عليه ، والصغار الذلة والهوان ، وأنظره: أخره ، والإغواء الإيقاع فى الغواية: وهى ضد الرشاد ، وذأم الشيء : عابه ، ودحر الجند العدو ، طرده وأبعده .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكّر سبحانه عباده فى الآية السابقة بنعمه عليهم بالتمكين فى الأرض وخلق أنواع المعايش فيها — قفى على ذلك ببيان خلق النوع الإنسانى مستعدا للكمال وأنه قد تعرض له وسوسة من الشيطان تحول بينه و بين هذا الكمال الذى يبتغيه .

## الإيضاح

( ولقد خلقناكم ثم صورناكم ) الخطاب لبنى آدم أى ولقد خلقنا مادة هذا النوع من الصلصال والحمأ المسنون أى من الماء والطين اللازب ، فمنه خلق الإنسان الأول ، ثم جعلنا من تلك المادة صورة بشر سوىّ قابل للحياة .

وقد يكون المعنى — إنا قدرنا إيجادكم تقديرا ثم صورنا مادتكم تصويرا ، وذلك شامل لخلق آدم وخلق مجموع الناس ، إذ أن كل فرد يقدر الله خلقه ثم يصور المادة التى يخلقه منها فى بطن أمه .

( ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ) أى و بعد أن سويناه ونفخنا فيه من روحنا

وصار مستعدا لأن يكون خليفة فى الأرض ، وعلمناه الأسماء كلها ، قلنا لجماعة الملائكة اسجدوا لآدم .

( فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ) أى فسجد الملائكة جميعا إلا إبليس فإنه أبى واستكبر ، وهو من الجن لا منهم .

وهذا السجود سجود تكريم وتعظيم من الله لآدم لا سجود عبادة ، فقد قامت الدلائل القاطعة على أنه لا معبود إلا الله وحده .

( قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ) لا هنا مزيدة للتأكيد بدليل قوله فى آية أخرى : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ ) أى قال له تعالى : ما منعك من امتثال أمرى ، فرفضت أن تسجد لآدم مع الساجدين .

وقد تكون (لا) غير زائدة والمنع بمعنى الحمل والاضطرار، وعليه فالمعنى ـ ماحملك ودعاك إلى ألا تسجد .

وخلاصة ذلك — أى شىء عرض لك فحملك على ألا تكون مع الملائكة فى امتثال أمرى بالسجود ؟ .

ثم ذكر سببا يبرر به امتناعه عن السجود .

( قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ) أى إن الذى حملنى على ذلك أنى خير منه ؛ إذ أنك خلقتنى من النار وخلقته من الطين ، والنار خير من الطين وأشرف ، والشريف لا يعظِّم مَن دونه ولو أمره بذلك ربه .

ولا شك أن فى هذا ضروبا من الجهالة وأنواعا من الفسوق والعصيان تتجلى لك فيما يلى :

(ا) اعتراضه على مولاه وخالقه بما تضمنه جوابه .

(ب) احتجاجه عليه بما يؤيد به اعتراضه ، والمؤمن المذعن لأمر ربه يعلم أن لله الحجة البالغة والحكمة الكاملة فيما يفعل ويأمر وينهى .

(ح) إنه جعل امتثال الأمر موقوفا على استحسانه له وموافقته لهواه ، وهذا

رفض لطاعة الخالق وترفع عن مرتبة العبودية ، والمرءوس فى الدنيا إذا لم يطع أمر الرئيس إلا فيا يوافق هواه ، صار الأمر فوضى والعاقبة وخيمة فلا يصلح عمل ولا يتم الفوز والنجاح .

وقد روى أبو نعيم فى الحلية عن جعفر الصادق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس ، قال الله تعالى له اسجد لآدم قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » قال جعفر : فمن قاس أمر الدين برأيه قرنه الله يوم القيامة بإبليس .

( د ) استدلاله على خيريته بالمادة التى منها التكوين ، وخيرية المواد بعضها على بعض أمور اعتبارية تختلف فيها الآراء ولا تثبت بالبرهان ، إلى أن كثيرا من المواد النفسية خسيسة الأصل ، ألا ترى أن أصل المسك الدم ، والماس من ( الكربون ) الذى هو أصل الفحم ، إلى أن الملائكة خلقوا من النور وهو قد خلق من النار ، والنور خير من النار ، وهم قد سجدوا امتثالا لأمر ربهم .

(هـ) إن جميع الأحياء النباتية والحيوانية التى فى هـذه الأرض إما من الطين مباشرة أو بالواسطة وهى خير ما فيها ، وليس للنار شىء من هذه المزايا ولا مايقرب منها .

( ز ) إنه قد جهل ما خص به آدم من استعداده العلمى والعملى أكثر من سواه ، ومن تشريفه بأمر الملائكة بالسجود له ، فكان بذلك أفضل منهم ، وهم أفضل من إبليس بعنصر الخلقة وبالطاعة لربهم .

وكل ما قدمنا مبنى على أن الأمر بالسجود أمر تكليف ، وأنه قد وقع حوار بين الله وإبليس .

ويرى كثير من العلماء أن القصة بيان لغرائز البشر والملائكة والشيطان ، إذ جعل الملائكة وهم المدبرون لأمور الأرض بإذن ربهم — مسخرين لآدم وذريته ، وجعل هـذا النوع مستعدا للانتفاع بالأرض كلها بعلمه بسنن الله فيها وعمله بهذه السنن ، فالانتفاع بمائها وهوائها ومعادنها ونباتها وحيوانها وكهربائها ونورها ،

و بذلك ظهرت حكمة الله تعالى وآياته فيها ، كما اصطفى بعض أفراده وخصهم بوحيه ورسالته وجعلهم مبشرين بدينه وهديه ، وجعل الشيطان عاصيا متمردا على الإنسان وعدوا له ، وجعل النفوس البشرية وسطا بين النفوس الملكية المفطورة على طاعة الله تعالى و إقامة سننه فى صلاح الخلق ، و بين روح الجن الذين يغلب على شرارهم ( وهم الشياطين ) التمرد والعصيان .

كما أنه تعالى آتى الإنسان إرادة واختيارا إن شاء صعد إلى أفق الملائكة ، و إن أراد هبط إلى أفق الشياطين .

( قال فاهبط منها ) أى اهبط من الجنة التي خلقك الله فيها وكانت على مرتفع من الأرض حين كانت قريبة العهد بالظهور فى وسط الماء ، فخير ما يصلح منها لسكنى الإنسان مرتفعاتها .

وقيل هى جنة الجزاء التى أسكنه الله فيها بعد خلقه فى الأرض ، ويرشد إلى هذا ما جاء فى سورتى البقرة وطه من أمره بالهبوط وأمر آدم وزوجه بذلك بعد قوله : « اُسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ » .

( فما يكون لك أن تتكبر فيها ) أى فما ينبغى لك أن تتكبر فى هذا المكان المعد للكرامة والتعظيم .

( فاخرج إنك من الصاغرين ) أى فاخرج من هذا المكان ، فإنك من ذوى الذلة والهوان ، وقد أظهر حقيقتك الامتحان ، ودل على أنك من الأشرار لا الأخيار .

وفى هذا إيماء إلى أنه تعالى جازاه بضد ما أراد ، فقد أراد أن يرفع نفسه عن منزلتها فجوزى بالهبوط منها إلى ما دونها ، وجاء فى بعض الآثار : «إن الله تعالى يحشر المتكبرين يوم القيامة فى أحقر الصور ، إذ يطؤهم الناس بأرجلهم ، كما أنه يبغّضهم إلى الناس فى الدنيا ، فيحتقرونهم ولو فى أنفسهم » .

( قال أنظرنى إلى يوم يبعثون ) أى قال رب أمهلنى إلى يوم يبعث آدم وذريته فأكون أنا وذريتى أحياء ما داموا أحياء ، وأشهد انقراضهم و بعثهم .

وقد أراد بذلك أن يجد فسحة فى الإغواء فيأخذ بالثأر ، ثم هو مع ذلك ينجو من الموت إذ لاموت بعد البعث .

( قال إنك من المنظرين ) أى قال سبحانه : إنى أجبتك إلى ما طلبت ، لما فى ذلك من الحكمة التى أنا بها عليم .

وظاهر الآية يدل على أنه تعالى جعله من المنظرين إلى يوم يبعثون ، لكن جاء فى سورة الحجر : «قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» فهذا يدل على أن النظرة إلى وقت النفخة الأولى بالصور ، وهى النفخة التى يموت فيها أهل الأرض جميعا دفعة واحدة ، لا إلى وقت النفخة الثانية وهى التى بها يبعثون ، وورد أن بينهما أربعين سنة .

والنفخة الأولى تسمى نفخة الفزع لقوله تعالى فى سورة النمل : « وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ » ونفخة الصعق لقوله فى سورة الزمر : « وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ » .

روى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل جبريل عن هذه الآية : من الذين لم يشأ الله أن يصعقوا ؟ قال : هم شهداء الله عز وجل ، أى هم حججه على خلقه بحسن سيرتهم واستقامتهم فى الدنيا وهم يشهدون فى الآخرة بضلال كل من خالف هديهم وسنتهم ، ويدخل فى هؤلاء النبيون والصديقون ، فكل نبى شهيد على قومه كما قال تعالى : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هٰؤُلَاءِ شَهِيدًا » وكذلك كل صدّيق شهيد .

والخلاصة — إن إبليس يموت عقب النفخة الأولى التى يتلوها خراب هذه الأرض كما قال فى سورة الحاقة : « فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ . وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً » .

ولا يبقى إلى يوم البعث ، إلا إذا قلنا إن يوم البعث ويوم القيامة يطلقان تارة على ما يشمل زمن مقدماتهما ، وتارة أخرى على زمن الغاية وحدها .

(قال فبما أغويتنى لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم) صراط الله المستقيم : هو الطريق الذى يصل سالكه إلى السعادة التى أعدها سبحانه لمن زكى نفسه بهدى الدين الحق الذى يكمل الفطرة كما جاء فى الخبر : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

أى قال إبليس : فبإغوائك إياى من أجل آدم وذريته ، أقسم لأقعدنّ لهم على صراطك المستقيم ، فأصدنهم عنه وأقطعنه عليهم بأن أزين لهم طرقا أخرى أشرعها لهم من جوانب هذا الطريق حتى يضلوا عنه ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

( ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ) أى ثم لا أدع جهة من الجهات الأربع إلا هاجمتهم منها مترصدا لهم كما يقعد قطاع الطريق للسابلة .

وخلاصة ذلك — لأسولنّ لهم ولأضلنهم قدر المستطاع ، وقد ضرب لذلك المثل بحال العدو يأتى عدوه من أى جهة أمكنته ويفترص الفرصة إذا سنحت له .

( ولا تجد أكثرهم شاكرين ) أى ولا تجد أكثرهم مطيعين لك وشاكرين لنعمك عليهم فى عقولهم ومشاعرهم ومعايشهم وفى كل ما يهديهم إلى تكميل فطرتهم من تعاليم رسلك لهم ، بل الأقلون منهم هم الذين يتبعون ذلك ، وقد قال إبليس ذلك عن ظن فأصاب لقوله تعالى : « وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » .

وروى عن ابن عباس فى تفسير الجهات الأربع : من بين أيديهم أى أشككهم فى آخرتهم ، ومن خلفهم أى أرغبهم فى دنياهم ، وعن أيمانهم أى أشبه عليهم أمر دينهم ، وعن شمائلهم أى أستنّ لهم المعاصى ، ولا تجد أكثرهم شاكرين أى موحدين ؛

وفى رواية أخرى عنه ـ من بين أيديهم أى من قبل الدنيا ، ومن خلفهم أى من قبل الآخرة ، وعن أيمانهم أى من قبل حسناتهم ، وعن شمائلهم أى من قبل سيئاتهم .

والرواية الثانية تخالف الأولى فى تفسير ما بين الأيدى : هل المراد منه ماهو حاضر أو ما هو مستقبل ، وفى تفسير الخلف : هل المراد منه ما يتركه المرء ويتخلف عنه وهو الدنيا ، أو هو ما وراء حياته الحاضرة وهو الآخرة ، واللفظ محتمل لكلا التأويلين .

روى أحمد وأبو داود والنسائى من حديث ابن عمر قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الدعوات : « اللهم احفظنى من بين يدىّ ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى ، وأعوذ بك أن أُغتال من تحتى » .

( قال اخرج منها مذءوما مدحورا ) أى قال اخرج من الجنة وأنت مذموم مهان من الله وملائكته ومطرود من جنته .

( لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ) أى أقسم إن من يتبعك من بنى آدم فيما تزينه له من الشرك والفجور ، ويصدق ظنك عليه — ليكونن معك فى جهنم دار العذاب ، ولأملأنها منك ومن تبعك منهم أجمعين .

وفى قوله منهم إشارة إلى أن الملء يكون من بعضهم ، فإن بعض من يتبعه فى بعض المعاصى من المؤمنين الموحدين يغفر الله لهم ويعفو عنهم .

ونحو الآية قوله فى سورة ص : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ » .

وقد استثنى فى سورتى الحجر وص من إغوائه عباده المخلصين ، فقال فى الأولى : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ » وقال فى الثانية : « قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ » .

وقد علمت أن المراد من هذا بيان طبيعة البشر وطبيعة الشيطان واستعدادهما واختيارهما فى أعمالهما كما هو رأى بعض العلماء ، وأيد ذلك الحافظ ابن كثير .

---

وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَاوُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) .

## شرح المفردات

أصل الوسوسة : الصوت الخفى المكرر، ومنه قيل لصوت الحلى وسوسة، ووسوسة الشيطان للبشر : ما يحدونه فى أنفسهم من الخواطر الرديئة التى تزين لهم ما يضرهم فى أبدانهم أو أرواحهم ، ووورى الشىء: غطى وستر ، والسوءة: مايسوء الإنسان أن يراه غيره من أمر شائن وعمل قبيح ، وإذا أضيفت إلى الإنسان أريد بها عورته

الفاحشة ، لأنه يسوءه ظهورها بمقتضى الحياء الفطرى ، من الخالدين أى الذين لا يموتون أبدا ، وقاسمهما أى أقسم وحلف لهما ، ودلى الشىء تدلية : أرسله إلى أسفل رويدا رويدا ، والغرور : الخداع بالباطل ، طفقا أى أخذا وشرعا ، يخصفان أى يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة من قولهم : خصف الإسكافى النعل : إذا وضع عليها مثلها .

## المعنى الجملى

لا يزال الحديث متصلا فى الكلام فى النشأة الأولى للبشر وفى شياطين الجن ، وقد ذكرت تمهيدا لهداية الناس بما يتلوها من الآيات فى وعظ بنى آدم وإرشادهم إلى مابه تكمل فطرتهم ، وفى ذلك امتنان عليهم وذكر لكرامة أبيهم .

## الإيضاح

(ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) الجنة : هى التى خلق فيها آدم ، فآدم خلق من الأرض فى الأرض .

وقد تكررت هذه القصة فى سبعة مواضع من الكتاب العزيز ، ولم يرد فى موضع منها أن الله رفعه إلى الجنة التى هى دار الجزاء ، وإن كان الجمهور على أنها جنة الجزاء على الأعمال . ويرده أنه كلف فيها ألا يأكل من تلك الشجرة ، ولا تكليف فى دار الجزاء ، ولأنه نام فيها ، وأخرج منها ، ودخل عليه إبليس ، ولا نوم فى الجنة ، ولا خروج بعد الدخول ، ولا يمكن دخول الشيطان فيها بعد الطرد والإخراج .

والآية تدل على أن آدم كان له زوج فى الجنة ، وفى التوراة ( إن الله ألقى على آدم سباتا انتزع فى أثنائه ضلعا من أضلاعه ، فخلق منه حواء امرأته ، وأنها سميت امرأة لأنها من امرئ أخذت ) وليس فى القرآن ما يدل على هذا ، وما روى من ذلك مأخوذ من الإسرائيليات ، وما روى فى الصحيحين عن أبى هريرة من قوله صلى الله عليه وسلم

« فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج » فهو من باب التمثيل على حد قوله : « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ » والدليل على ذلك قوله بعد : « فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيرا » فإنه لاشك أن المراد منه ـ لا تحاولوا تقويم النساء بالشدة والغلظة فى المعاملة .

( فكلا من حيث شئتما ) أى فكلا من ثمارها من أى مكان أردتما .

( ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ) النهى عن قرب الشىء أبلغ أثرا من النهى عن الشىء نفسه ، إذ أنه يقتضى البعد عن موارد الشبهات التى تغرى به كما جاء فى الحديث : « ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه » .

وقد أبهم سبحانه هذه الشجرة ، ولو كان فى تعيينها خير لنا لعينها ، وقد علل القرآن النهى عنها ، بأنهما إذا اقتربا منها كانا من الظالمين لأنفسهما بفعلهما ما يعاقبان عليه ولو بالحرمان من رغد العيش وما يعقبه من التعب والمشقة .

( فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووارى عنهما من سوءاتهما ) أى زين لهما ما يضرهما و يسوءهما إذا هما رأيا ما يؤثران ستره وألا يُرى مكشوفا ، والأرجح أن هذه الوسوسة كانت بأن تمثل الشيطان لآدم وزوجه وكلمهما .

( وقال ما نهاكما ربكما عن هـذه الشجرة إلا أن تكونا ملـكين أو تكونا من الخالدين ) أى وقال لهما فيما وسوس به : ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا لأحد أمرين : كراهة أن تكونا بالأكل منها كالملـكين فيما أوتى الملائكة من الخصائص والمزايا : كالقوة وطول البقاء وعدم التأثر بتأثيرات الـكون المؤلمة المتعبة ، أو كراهة أن تكونا من الخالدين فى الجنة ، أى الذين لا يموتون البتة .

والخلاصة — إنه أوهمهما أن الأكل من هـذه الشجرة إما أن يعطى الآكل صفات الملائكة وغرائزهم ، أو يقتضى الخلود فى الحياة .

وفى الآية إيمـاء إلى تفضيل الملائكة على آدم ، وخصصه بعضهم بملائكة

السماء والعرش والكرسى من العالين والمقربين ، دون ملائكة الأرض المسخرين لتدبير أمورها و إحكام نظامها.

( وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين ) أى وأقسم إنه ناصح لهما فيما رغبهما فيه من الأكل من الشجرة ، وأكد ذلك بأشد المؤكدات وأغلظها ، إذ كان عندهما محل الظِّنة فى نصحه ، لأن الله أخبرهما أنه عدو لهما .

( فدلاهما بغرور ) أى فما زال يخدعهما بالترغيب فى الأكل من هذه الشجرة والقسم على أنه ناصح لهما حتى أسقطهما وحطهما عما كانا عليه من سلامة الفطرة وطاعة البارئ لهما بما غرهما به وزين لهما ، وقد اغترا به وانخدعا بقسمه وصدقا قوله اعتقادا منهما أن أحدا لا يحلف بالله كاذبا .

ويرى بعض العلماء أن الغرور كان بتزيين الشهوة ، فإن من غرائز البشر وطبائعهم كشف المجهول والرغبة فى الممنوع، فقد نفخ الشيطان فى نار هذه الشهوات الغريزية وأثار النفس إلى مخالفة النهى حتى نسى آدم عهد ربه ، ولم يكن له من قوة العزم ما يكفه عن متابعة امرأته ، ويعتصم به من تأثير شيطانه كما قال فى سورة طه : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً » وجاء فى الصحيح عن أبى هريرة : « ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها » أى لأنها هى التى زينت له الأكل من الشجرة ، وقد فطرت المرأة على تزيين ما تشتهيه للرجل ولو بالخيانة له .

( فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ) أى فلما ذاقا ثمرة الشجرة ظهرت لكل منهما سوءته وسوءة صاحبه وكانت مستورة عنهما ، فدبت فيها شهوة التناسل بتأثير الأكل من الشجرة ، فنبهتهما إلى ما كان خفيا عنهما من أمرها ، فخجلا من ظهورها وشعرا بالحاجة إلى سترها ، وشرعا يلزقان ويربطان على أبدانهما من ورق أشجار الجنة العريض ما يسترها .

وهذه المواراة معنوية كما هو الظاهر ، وقد تكون حسية ويكون الساتر هذا الشعر الخلقى وإن كانت قد تظهر الشهوة ما يخفيه .

والخلاصة — إن الشيطان لما وسوس لهما بقوله : مانهاكما ربكما الخ ولم يقبلا منه ما قال ـ لجأ إلى اليمين كما دل على ذلك قوله : وقاسمهما ، فلم يصدقاه أيضا ، فعدل بعد ذلك إلى الخداع كما أشار إلى ذلك بقوله: فدلاهما بغرور أى إنه شغلهما بتحصيل اللذات فجعلاها نصب أعينهما ونسيا النهى كما يدل على ذلك قوله : « فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً » .

وقد عاتبه الله على تركه التحفظ والحيطة والتدبر فى عواقب الأمور فقال :

( وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ ) أى وناداهما ربهما معاتبا لهما وموبخا لهما وقال : ألم أنهكما عن أن تقربا هذه الشجرة وأقل لكما إن الشيطان ظاهر العداوة لكما ، فإن أطعتماه أخرجكما من الجنة حيث العيش الرغد إلى حيث الشقاء فى العيش والتعب والنصب فى الحياة .

ونحو الآية قوله فى سورة طه : « فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى » .

( قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ) أى قالا ربنا إننا ظلمنا أنفسنا بطاعتنا للشيطان ومعصيتنا لأمرك وقد أنذرتنا ، وإن لم تغفر لنا ما ظلمنا به أنفسنا وترحمنا بالرضا عنا وتوفيقنا إلى الهداية وترك الظلم ، وبقبول توبتنا إذا نحن أنبنا إليك ، وإعطائنا من فضلك فوق ما نستحق ـ لنكونن من الخاسرين لأنفسنا وللفوز والفلاح بتزكيتها .

والخلاصة — إن الظفر بالمقصود والفوز بالسعادة لاينالهما بمغفرتك ورحمتك إلا من ينيب إليك ويتبع سبيلك ، ولا ينالهما من يصر على ذنبه ويحتج على ربه كما فعل الذى أبى واستكبر فكان من الخاسرين .

ونحو الآية قوله فى سورة البقرة : « فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » .

( قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ) يرى كثير من سلف الأمة أن هذا الخطاب لآدم وحواء، وإبليس عليه اللعنة، أى اهبطوا من هذه الجنة بعضكم عدو لبعض أى إن الشيطان عدو للإنسان ، فعلى الإنسان ألا يغفل عن عداوته ولا يأمن وسوسته وإغواءه كما جاء فى قوله : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ » .

وهذا الإخراج من ذلك النعيم عقاب على تلك المعصية التى بها ظلما أنفسهما ، وقد قضت به سنة الله فى الخلق ، إذ جعله أثرا طبيعيا للعمل السيئ مترتبا عليه ، أما العقاب الأخروى على عصيان الرب فقد غفره الله له بالتوبة التى أذهبت أثره من النفس وجعلتها محلا لاصطفائه كما قال فى سورة طه : « وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى » .

( ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ) أى ولكم فى الأرض استقرار و بقاء إلى زمن مقدر فى علم الله وهو الأجل الذى به تنتهى فيه أعماركم وتقوم فيه القيامة ، كما أن لكم فيها متاعا تنتفعون به فى معيشتكم .

ونحو الآية قوله : « وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ».

ثم فصل هذا القول المجمل :

( قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ) أى فى هذه الأرض التى خلقتم منها تحيون مدة العمر المقدر لكل منكم وللنوع بأسره ، وفيها تموتون حين انتهائه ، ومنها تخرجون بعد موتكم كلكم ، وحين ما يريد المولى أن يبعثكم من مرقدكم للنشأة الآخرة .

ونحو الآية قوله تعالى فى سورة طه : « مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى » .

## مغزى هـذا القصص

قص الله سبحانه علينا خبر النشأة الأولى ليرشدنا إلى ما فطرنا عليه ، و إلى ما يجب علينا من شكره وطاعته ، ويبين لنا أنه خلق الإنسان ليكون خليفة فى الأرض ، وجعله مستعدا لعلم كل شىء فيها وتسخير ما فيها من القوى لمنافعه وليهدينا إلى أنه كان فى نشأته الأولى فى جنة النعيم وراحة البال ، وقد جعله مستعدا للتأثر بالأرواح الملكية التى تجذبه إلى الحق والخير والأرواح الشيطانية التى تجذبه إلى الباطل والشر ، وعاقبة التأثر الأول سعادة الدارين ، ونتيجة الثانى الشقاء فيهما ، وهو أيضا محتاج إلى الوحى لإرشاده وهدايته .

فعلينا أن نعرف غرائزنا ونربى أنفسنا على أن تتذكر عهـد الله إلينا بأن نعبده وحده ولا نعبد معه أحدا سواه ، ولا ننساه فننسى أنفسنا ونغفل عن تزكيتها ونتركها كالريشة فى مهاب أهواء الشهوات ووساوس شياطين الضلالات .

وعلينا أن نعرف أن آدم لم يكن نبيا ورسولا عند بدء خلقه ولا موضعا للرسالة فى ذلك الحين ، بل أنكر بعضهم أن يكون رسولا مطلقا ، وقال إن أول الرسل نوح عليه السلام كما تدل على ذلك الآيات الواردة فى الرسل والأحاديث الصحيحة ، وما ورد فى هذه القصة من التفسير بالمأثور فأكثره مدخول مأخوذ من الإسرائيليات عن زنادقة اليهود الذين دخلوا فى الإسلام للكيد له وكان الرواة ينقلون عن الصحابى أو التابعى ما مصدره من الإسرائيليات فيغتر به بعض الناس فيظنون أنه لابد له من أصل مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم لأنه لا يعرف بالرأى .

---

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً ، وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦)

يا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ، إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ، إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ (٢٧) .

## شرح المفردات

الريش: لباس الحاجة والزينة ، ولباس التقوى : ما يلبس من الدروع والجواشن والمغافر وغيرها مما يتقى به فى الحرب، والفتنة: الابتلاء والاختبار، من قولهم: فتن الصائغ الذهب أو الفضة إذا عرضهما على النار ليعرف الزيف من النضار ، والقبيل : الجماعة كالقبيلة ، وقيل القبيلة : من كان لهم أب واحد ، والقبيل أعم .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه أمر سبحانه آدم وحواء بالهبوط إلى الأرض وجعل الأرض مستقرا لهما ، وذكر أن الشيطان عدو لهما — ذكر هنا أنه أنزل له ولبنيه كل ما يحتاجون إليه فى دينهم ودنياهم كاللباس الذى يسترون به عوراتهم ويتخذونه للزينة ولباس الحرب كالمغافر والجواشن ونحوها ، فعليكم أن تشكروه تعالى على هذه المنن العظام ، وتعبدوه وحده لا شريك له .

## الإيضاح

( يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ) نادى الله بنى آدم وامتن عليهم بما أنعم عليهم من اللباس على اختلاف درجاته وتعدد أنواعه ، من الأدنى الذى يستر العورة عن أعين الناس إلى الأعلى من أنواع الحلل التى تشبه ريش الطير فى وقاية البدن من الحر والبرد ، إلى ما فيها من الزينة والجمال .

والخلاصة — إنه يقول : يا بنى آدم ، بقدرتنا قد أنزلنا عليكم من سمائنا لتدبير أموركم لباسا يوارى سوءاتكم ، وريشا تتزينون به فى المجالس والمجتمعات ، وهو أعلى اللباس وأكمله ، وما دون ذلك وهو ما يقى الحر والبرد .

ومعنى إنزال ما ذكر من السماء — إنزال مادته من القطن والصوف والوبر والحرير وريش الطير وغيرها مما ولدته الحاجة وافتن الناس فى استعماله ، بعد أن تعلموا وسائل صنعه بما أوجد فيهم من الغرائز والصفات التى بها غزلوا ونسجوا وحاكوا ذلك على ضروب شتى وخاطوه على أشكال لا حصر لها ولا عد ، ولا سيما فى هذا العهد الذى رقيت فيه الصناعات إلى أقصى مدى وأبعد غاية .

ولا شك أن امتنانه علينا بلباس الزينة دليل على إباحتها والرغبة فى استعمالها ، فالإسلام دين الفطرة ، وليس فيه ما يخالف ما تدعو إليه الحاجة ، وحب الزينة من أقوى غرائز البشر الدافعة لهم إلى إظهار سنن الله فى الخليقة .

( ولباس التقوى ذلك خير ) المشهور من كلام التابعين أن لباس التقوى لباس معنوى لا حسى، فقد قال ابن زيد : لباس هو التقوى ، وعن ابن عباس: إنه الإيمان والعمل الصالح ، فإنهما خير من الريش واللباس . وروى عن زيد بن على بن الحسين : أنه لباس الحرب كالدرع والمغفر والآلات التى يتقى بها العدو ، واختاره أبو مسلم الأصفهانى ، ويدل عليه قوله تعالى : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ » .

( ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ) أى ذلك الذى تقدم ذكره من النعم بإنزال الملابس من آيات قدرته ودلائل إحسانه وفضله على بنى آدم .

وهذه النعم تؤهلهم لتذكر ذلك الفضل والقيام بما يجب عليهم من الشكر ، والابتعاد من فتنة الشيطان وإبداء العورات أو الإسراف فى استعمال الزينة إلى نحو ذلك .

( يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ) من سنن العربية تكرار النداء فى مقام التذكير والوعظ : أى لا تغفلوا يا بنى آدم عن أنفسكم فتمكنوا الشيطان من وسوسته لكم والتحيل فى خداعكم و إيقاعكم فى المعاصى ، كما وسوس لأبويكم آدم وحواء فزين لهما معصية ربهما فأكلا من الشجرة التى نهاهما عنها ، وكان ذلك سببا فى خروجهما من الجنة التى كانا يتمتعان بنعيمها ، ودخولها فى طور آخر يكابدان فيه شقاء المعيشة وهمومها .

( ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ) أى إنه أخرجهما من الجنة وكان سببا فى نزع ما اتخذاه لباسا لهما من ورق الجنة لأجل أن يريهما سوءاتهما .

وفى ذلك إيماء إلى أنهما كانا يعيشان عريانين ، لأنه ليس فى الأرض ثياب تصنع ، وليس هناك إلا أوراق الأشجار ، وعلماء العاديات والآثار يحكمون حكما جازما بأن البشر قبل اهتدائهم إلى الصناعات كانوا يعيشون عراة ، ثم اكتسوا بورق الشجر وجلود الحيوان التى يصطادونها ، ولا يزال المتوحشون منهم إلى الآن يعيشون كذلك .

( إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ) أى إن إبليس وجنوده من شياطين الجن يرونكم ولا ترونهم ، والضرر إذا جاء من حيث لا يرى كان خطره أشد ، ووجوب العناية باتقائه أعظم ، كما يرى ذلك فى بعض الأوبئة التى ثبت وجودها فى هذا العصر بالمجهر ( التليسكوب ) فإنها تنفذ إلى الأجسام بنقل الذباب أو البعوض أو مع الطعام أو الشراب أو الهواء ، فتتوالد وتنمو بسرعة ، وقد تسبب للإنسان أمراضا مستعصية العلاج كالحمى الصفراء ( الملاريا ) والتفويد والتيفوس والسل والسرطان إلى نحو أولئك .

وفعل جنة الشياطين فى أرواح البشر كفعل هذه الجنة التى يسميها الأطباء ( الميكروبات ) فى الأجسام ، فكلاهما يؤثر من حيث لا يرى فيتقى ، والثانية تتقى بالأخذ بنصائح الأطباء واستعمال الوسائل العلاجية الواقية .

والوقاية منها ضربان :

(١) اتخاذ الأسباب التى تمنع مجيئها من الخارج كالذى تفعله الحكومات فى المحاجر الصحية فى الثغور ومداخل البلاد .

(٢) تقوية الأبدان بالأغذية الجيدة والنظافة التامة لتقوى على مقاومة هذه الجنة والفتك بها إذا وصلت إليها ، كما يتقى وصول العُث إلى الصوف بمنع وصول الغبار إليه أو بوضع الدواء الذى يسمى ( النفتالين ) إذ يقتله برائحته .

والأولى تتقى أيضا بإرشاد طب الأنفس والأرواح الذى يهدى إلى الوقاية من فتك جنة الشياطين فيها بالوسوسة وتزيين الأباطيل والشرور المحرمة فى هذا الطب لضررها ، فمداخلها فى أنفسهم وتأثيرها فى خواطرهم كدخول تلك الجنة فى أجسادهم وتأثيرها فى أعضائهم من حيث لا ترى .

والوقاية منها على ضربين :

(١) بتقوية الأرواح بالإيمان بالله وصفاته وإخلاص العبادة له والتخلق بالأخلاق الكريمة وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فتبتعد تلك الأرواح الشيطانية عنها ولا تستطيع القرب منها .

(٢) بمعالجة هذا الوسواس بعد طروئه كما يعالج المرض بعد حدوثه بالأدوية التى تقتله وتمنع امتداد ضرره .

والخلاصة ـ إن هذه الجملة ( إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ) جاءت تعليلا للنهى عن تمكين الشيطان مما يبغى من الفتنة ، وتأكيدا للتحذير منه ، وتذكيرا بشديد عداوته وضرره ( والضرر إذا جاء من حيث لا يرى كان شديد الأثر عظيم الخطر ) .

( إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ) أى إن سنتنا جرت بأن يكون الشياطين الذين هم شرار الجن أولياء لشرار الإنس وهم الكفار الذين لا يؤمنون بالله تعالى وملائكته إيمان إذعان تزكو به نفوسهم ، لما بينهما من التناسب والتشاكل

واكتساب الكفار لولاية الشياطين جاءت بسبب استعدادهم لقبول وسوستهم وإغوائهم وعدم احتراسهم من الخواطر الرديئة ، كما كتساب ضعفاء البنية للأمراض باستعدادهم لها وعدم احتراسهم من أسبابها كتناول الأطعمة والأشربة الفاسدة والوجود فى جوّ مملوء بالجراثيم القتالة بعدم تعرضه للشمس والنور والهواء المتجدد .

---

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ، إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠)

## شرح المفردات

الفاحشة : الفعلة المتناهية فى القبح ، والمراد بها هنا طواف أهل الجاهلية عراة كما ولدتهم أمهاتهم ويقولون لا نطوف بيت ربنا فى ثياب عصيناه بها ، والقسط : الاعتدال فى جميع الأمور ، وهو الوسط بين الإفراط والتفريط ، و إقامة الشىء : إعطاؤه حقه وتوفيته شروطه كإقامة الصلاة و إقامة الوزن بالقسط ، والوجه : قد يطلق على العضو المعروف من الإنسان كما فى قوله « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » وقد يطلق على توجه القلب وصحة القصد كما فى قوله : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا »

## المعنى الجملى

بعد أن بين عز اسمه أنه جعل الشياطين قرناء للكافرين مسلطين عليهم متمكنين من إغوائهم ـ ذكر هنا أثر ذلك التسليط عليهم وهو الطاعة لهم فى أقبح الأشياء مع عدم شعورهم بذلك القبح .

## الإيضاح

( وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ) أى وإذا فعل الذين لايؤمنون بالله ممن جعلوا الشياطين أولياء لهم ـ قبيحا من الأفعال كتعريهم حين الطواف بالبيت ، فلامهم الناس على ذلك ، قالوا وجدنا آباءنا يفعلون كما نفعل فنحن نقتدى بهم ونستنّ بسنتهم ، والله أمرنا بذلك فنحن نتبع أمره فيه . وقد رد الله عن الأمر الثانى بأمر رسوله أن يدحضه بقوله :

( قل إن الله لايأمر بالفحشاء ) أى إن هـذا الفعل من الفحشاء والله بكماله منزه أن يأمر بها ، وإنما يأمر بها الشيطان كما جاء فى قوله « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ » .

ثم رد عليهم الوجه الأول ووبخهم على تقليد الآباء والأجداد بقوله :

( أتقولون على الله ما لاتعلمون ) أى إنكم باتباعكم للآباء والأجداد فى الآراء والشرائع غير المسندة إلى الوحى تقولون على الله ما لاتعلمون أنه شرعه لعباده .

والخلاصة — إنهم فى عملهم الفاحشة استندوا إلى أمرين أمر الله بهما وتقليد الآباء والأجداد ، وقد رد الله عليهما فى كل منهما ، فرد على الأول ببيان أن الله لايأمر بفاحشة وأن الذى يأمر بذلك إنما هو الشيطان ، ورد على الثانى بأن التشريع لايعلم إلا بوحى من عنده إلى رسول يؤيده بالآيات البينات وهو لم ينزل عليهم به ، فقولهم

هذا إنما هو اتباع للأهواء فيما هو قبيح تنفر منه الطباع السليمة ، وتستنقصه العقول الراجحة الحكيمة .

و بعد أن أنكر عليهم أن يكونوا على علم بأمر الله فيما فعلوا - بين ما يأمر به من محاسن الأعمال ومكارم الأخلاق والخصال بقوله لرسوله :

( قل أمر ربى بالقسط ) أى قل لهم : إنما أمرنى ربى بالاستقامة والعدل فى الأمور كلها .

( وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ) أى وقل لهم أمرنى ربى بالقسط ، فأقسطوا وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، أى أعطوا توجهكم إلى الله تعالى حقه من صحة النية وحضور القلب وصرف الشواغل عند كل مسجد تعبدونه فيه ، سواء كانت العبادة طوافا أو صلاة أو ذكراً ، وادعوه وحده مخلصين له الدين ، ولا تتوجهوا إلى غيره من عباده المكرمين كالملائكة والأنبياء والصالحين زعما منكم أنهم يشفعون لكم عند ربكم ويقربونكم إليه زلفى ، وقد جعلتم هذا من الدين افتراء على الله وقولا عليه بغير علم .

و بعد أن أبان أصل الدين ومناط الأمر والنهى فيه - ذكَّرنا بالبعث والجزاء على الأعمال فقال :

( كما بدأكم تعودون . فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة ) أى كما بدأكم ربكم خلقا وتكوينا بقدرته تعودون إليه يوم القيامة وأنتم فريقان :

(١) فريق هداه الله فى الدنيا ببعثة الرسل فاهتدى بهديهم وأقام وجهه له وحده فى العبادة ودعاه مخلصا له الدين لا يشرك به أحداً .

(٢) فريق حق عليهم الضلالة لاتباعهم إغواء الشيطان وإعراضهم عن طاعة بارئهم .

وكل فريق يموت على ما عاش عليه و يبعث على ما مات عليه ، وإنما حقت

على الفريق الثانى الضلالة ، لأنهم اقترفوا أسبابها فوجدت نتائجها ومسبباتها ، لا أنها جعلت غرائز لهم فكانوا عليها مجبورين ، يرشد إلى ذلك قوله :

( إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ) أى إنهم حين أطاعوا الشياطين فيما زينوا لهم من الفواحش والمنكرات ، فكأنهم ولوهم أمورهم من دون الله الذى يأمر بالعدل والإحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر ، وهم مع عملهم هذا يحسبون أنهم مهتدون فيما تلقنهم الشياطين من الشبهات ، كجعل التوجه إلى غير الله والتوسل إليه فى الدعاء مما يقربهم إلى الله زلفى ، قياسا على الملوك الجاهلين الذين لايقبلون الصفح عن مذنب إلا بوساطة بعض المقربين عنده .

والكثير من أهل الضلال يحسبون أنهم مهتدون ، وهم ما بين كافر جحود للحق كبرا وعناداً كأعداء الرسل فى عصورهم وحاسديهم على ما آتاهم الله من فضله كما حكى الله عن فرعون وملئه « وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا » وكالكبراء من قريش أمثال أبى جهل والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث فى جمع كثير منهم وهم الذين قال الله فيهم : « فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ » وهؤلاء هم الأقلون عددا ـ وكافر بالتقليد واتباع نزغات الشيطان ، أو باتباع الآراء الخاطئة والنظريات الفاسدة ، وهم الذين قال الله فيهم : « قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً . الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً » وهؤلاء هم جمهرة الناس فى جميع الأمم .

وذهب كثير من العلماء إلى أن من بذل جهده فى البحث والنظر فى الحق ، ثم اتبع ما ظهر له أنه الحق على حسب ما وصلت إليه طاقته ، وكان مخالفا فى شىء منه لما جاءت به الرسل ـ لايدخل فى مدلول هذه الآية ونحوها ، بل يكون معذورا عند الله لقوله تعالى : « لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا » .

يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢).

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآية السالفة أنه أمر عباده بالعدل فى كل الأمور واتباع الوسط منها — طلب إلينا أن نأخذ الزينة فى كل مجتمع للعبادة ، فنستعمل الثياب الحسنة فى الصلاة والطواف ونحو ذلك ، كما أباح لنا أن نأكل ونشرب مما خلق الله بشرط ألا نسرف فى شىء من ذلك .

أخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال : كان الناس يطوفون بالبيت عراة ويقولون : لانطوف فى ثياب أذنبنا فيها ، فجاءت امرأة فألقت ثيابها فطافت ووضعت يدها على قبلها وقالت :

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحـــله

فنزلت هذه الآية .

## الإيضاح

( يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ) الزينة ما يزين الشىء أو الشخص وأخذها التزيين بها ، والمراد بالزينة هنا الثياب الحسنة كما يدل على ذلك سبب نزول الآيات ، وأقل هذه الزينة ما يدفع عن المرء أقبح ما يشينه بين الناس وهو ما يستر عورته ، وهو الواجب لصحة الصلاة والطواف ، وما زاد على ذلك من التجمل بزينة اللباس عند الصلاة ولا سيما صلاة الجمعة والعيدين فهو سنة لا واجب .

ويرى بعض العلماء وجوب الزينة للعبادة عند كل مسجد على حسب عرف الناس فى تزينهم فى المجامع والمحافل ، ليكون المؤمن حين عبادة ربه مع عباده المؤمنين فى أجمل حال لاتقصير فيها ولا إسراف .

أخرج الطبرانى والبيهقى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا صلى أحدكم فليلبس ثوبيه ، فإن الله عز وجل أحق من تزين له فإن لم يكن له ثوبان فليتزر إذا صلى ، ولا يشتمل أحدكم فى صلاته اشتمال اليهود » .

وأخرج الشافعى وأحمد والبخارى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا يصلين أحدكم فى الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شىء » .

وعلى الجملة فالزينة تختلف باختلاف حال الإنسان فى السعة والضيق ، فمن عنده ثوب واحد يستر جميع بدنه فليستر به جميع بدنه وليصل به ، فإن لم يستر إلا العورة كلها أو الغليظة منها وهى السوءتان فليستر به ما يستره ، ومن وجد ثوبين أو أكثر فليصل بهما .

وهذا الأمر بالزينة عند كل مسجد أصل من الأصول الدينية والمدنية عند المسلمين وكان سببا فى تعليم القبائل المتوحشة القاطنة فى الكهوف والغابات أفراداً وجماعات لبس الثياب عند دخولها فى حظيرة الإسلام ، وكانوا قبل ذلك يعيشون عراة الأجسام رجالا ونساء حتى ذكر بعض المنصفين من الإفرنج أن لانتشار الإسلام فى إفريقية منة على أوربا بنشره للمدنية بين أهلها ، إذ ألزمهم ترك العرى وأوجب لبس الثياب ، فكان ذلك سببا فى رواج تجارة المنسوجات .

وبهذا نقل الإسلام أمما وشعوبا كثيرة من الوحشية إلى الحضارة الراقية .

( وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين ) أى خذوا زينتكم عند المساجد وأداء العبادات ، وكلوا واشربوا من الطيبات ، ولا تسرفوا فيها ، بل عليكم بالاعتدال فى جميع ذلك ، لأن الله الخالق لهذه النعم لايحب المسرفين فيها ،

بل يعاقبهم على هذا الإسراف بمقدار ما ينشأ عنه من المضار والمفاسد ، لأنهم قد خالفوا سنن الفطرة وجنوا على أنفسهم فى أبدانهم وأموالهم ، وجنوا على أسرهم وأوطانهم ، إذ هم أعضاء فى جسم الأسرة والأمة .

روى النسائى وابن ماجه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا فى غير مَخِيلَة ( كبر وإعجاب بالنفس ) ولا سرف ، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمه على عبده » .

وعن ابن عباس أنه قال : كل ما شئت ، واشرب ما شئت ، والبس ما شئت إذا أخطأتك اثنتان : سرف أو مَخِيلة .

والإسراف : تجاوز الحد فى كل شىء ، والحدود منها :

(١) طبيعى كالجوع والشبع والظمأ والرى ، فمن أكل إذا أحس بالجوع أو كف عن الأكل إذا شعر بالشبع و إن كان يستلذ الاستزادة ، أو شرب إذا شعر بالظمأ واكتفى بما يزيله ولم يزد على ذلك لم يكن مسرفا فى أكله وشربه وكان طعامه وشرابه نافعين له.

(٢) اقتصادى وهو أن تكون النفقة على نسبة معينة من دخل الإنسان بحيث لاتستغرق كسبه .

(٣) شرعى فإن الشارع حرم من الطعام الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، وحرم من الشراب الخمر ، وحرم من اللباس الحرير الخالص ، أو الغالب على الرجال دون النساء ، وحرم الأكل والشرب فى أوانى الذهب والفضة وعده من السرف المنهى عنه ، فهذه الأشياء لا يباح استعمالها إلا لضرورة تقدر بقدرها .

والمعول عليه فى الإنفاق فى كل طبقة عرف المعتدلين فيها ، فمن تجاوز طاقته مباراة لمن هم أغنى منه وأقدر كان مسرفا ، وكم جرّ الإسراف إلى خراب بيوت عامرة ولا سيما فى المهور وتجهيز العرائس وحفل العرس والمأتم و( الزار ) .

ثلاثة تشقى بها الدار العرس والمأتم والزار

وهذا السرف كبير الضرر عظيم الخطر على الأمم أكثر من ضرره على الأفراد

ولا سيما فى البلاد التى تأتى إليها أنواع الزينة من البلاد الأجنبية عنها ، إذ تذهب الثروة إلى غيرأهلها ، وربما ذهبت إلى من يستعين بها على استذلالهم والعدوان عليهم.

والخلاصة — إن الطعام والشراب من ضرورات الحياة الحيوانية ، ولكن ضل فى ذلك فريقان :

(ا) فريق البخلاء والغلاة فى الدين الذين تركوا الأكل والشرب من الطيبات المستلذة ، إما بخلا وشحا أو تحرجا وتأثما، إما دائما أو فى أوقات مخصوصة من السنة .

(ب) فريق المترفين الذين أسرفوا فى اللذات البدنية وجعلوها جل همهم ، فهم يأكلون ويشربون ويتمتعون كما تتمتع الأنعام ، وليس لهم غاية يقفون عندها ، أو نهاية ينتهون إليها .

( قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ) إخراج الله للزينة خلق موادها وتعليم طرق صنعها بما أودع فى فطرهم من حبها والميل إلى الافتنان فى استعمالها ، إذ خلقهم مستعدين لإظهار آياته فى جميع ما خلق فى هذا العالم الذى يعيشون فيه ، بما أودع فى غرائزهم من الميل إلى البحث فى كشف المجهول والاطلاع على خفايا الأمور، فهم لايدعون شيئا عرفوه بحواسهم أوعقولهم حتى يبحثوه من طرق شتى وأوجه لانهاية لها ، ولن تنتهى بحوثهم مادام الإنسان على ظهر البسيطة.

وغريزة حب الزينة وحب التمتع بالطيبات كانت من أهم الأسباب فى اتساع أعمال الفلاحة والزراعة ورقى ضروب الصناعة ، واتساع وسائل العمران ، ومعرفة سنن الله وآياته فى الأكوان ، وهما لايذمان إلا بالإسراف فيهما والغفلة عن شكر المنعم بهما .

والخلاصة — إن الدين لم يحرمهما إلا إذا كانا عائقين عن الكمال الروحى والكمال الخلقى ، وإنه لم يجعل تركهما قربة إلى الله كما جرى على ذلك الوثنيون من البراهمة وغيرهم وقلدهم فى ذلك بعض المسلمين وصاروا يبثون فى الأمم الإسلامية

تعاليم تقضى بأن روح الدين ومخ العبادة فى التقشف وحرمان النفس من التمتع بلذات الحياة ، وقد بين الله وجه الصواب فى ذلك بقوله لرسوله :

( قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ) أى قل أيها الرسول لأمتك : إن الزينة والطيبات من الرزق للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويشاركهم فيها غيرهم تبعا لهم وإن لم يستحقها مثلهم ، وهى خالصة لهم يوم القيامة .

وقصارى ذلك — إن الدين يورث أهله سعادة الدنيا والآخرة جميعاً كما يدل على ذلك قوله : « وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمَى » وقوله : « وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً » .

ذاك أن المؤمن يزداد علما وإيمانا بربه وشكرا له كلما عرف شيئا من سننه وآياته فى نفسه أو فى غيرها من الكائنات ، ومن أهم أركان الشكر استعمال النعمة فيما وهبها المنعم لأجله من شكر الجوارح كشكر اللسان بالثناء عليه وشكر سائر الأعضاء كذلك ، ففى حديث أبى هريرة عند أحمد والترمذى والحاكم « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » والسر فى هذا أن الأكل والشرب من الطيبات بدون إسراف هما قوام الحياة والصحة ، وهما الدعامتان اللتان يتوقف عليهما القيام بجميع الأعمال الدينية والدنيوية من عقلية وبدنية ، ولهما التأثير العظيم فى جودة النسل الذى به يكثر سواد الأمة .

والملابس الجيدة النظيفة لها فوائد :

(١) حفظ الصحة .

(٢) كرامة من يتجمل بها فى نفوس الناس .

(٣) إظهار نعمة الله على لابسها ، والمؤمن يثاب بنيته على كل ماهو محمود من هذه الأمور بالشكر عليها .

روى أبو داود عن أبى الأحوص قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم

فى ثوب دُونٍ فقال : ألك مال ؟ قلت نعم . قال من أىّ المال ؟ قلت قد آتانى الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق . قال : فإذا آتاك الله فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته لك » .

وأخرج الترمذى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » .

وقد كانت العرب تحرم زينة اللباس فى الطواف تعبدا ، وتحرم الادهان ونحوه حال الإحرام بالحج كذلك ، وتحرم من الأنعام والحرث ما ذكر فى سورة الأنعام ، وحرم أهل الكتاب كثيرا من الطيبات .

فجاء الدين الإسلامى الجامع بين مصالح الدنيا ومصالح الآخرة والمطهر للنفوس والمهذب للأخلاق ، فأنكر هذا التحكم المخالف لسنن الفطرة و بين أن هذا التحريم لم يكن إلا من وساوس الشيطان ولم يوح به الله إلى أنبيائه ورسله المصطفين الأخيار .

( كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ) أى إن هذا التفصيل لحكم الزينة والطيبات الذى ضل فيه كثير من الأمم والأفراد ما بين إفراط وتفريط — لا يعقله إلا الذين يعلمون سنن الاجتماع وطبائع البشر ومصالحهم ، ونحن قد فصلناه على لسان هذا النبى الأمى الذى لم يكن يعرف شيئا من تاريخ البشر فى أطوار بداوتهم وأطوار حضارتهم قبل أن ننزلها عليه ، فكان ذلك آية دالة على نبوته ، إذ ما كان لمثله أن يعلمها إلا بالوحى من عندنا ، ولولا الكتاب الكريم لما خرجت العرب من ظلمات الوثنية والجهالة إلى ذلك النور الذى صلحت به وأصلحت أمما كثيرة بالدين والفنون والآداب وما أحيت من علوم الأوائل .

ولكن وا أسفا قد أضحى المسلمون من أجهل الشعوب بسنن الله فى الأكوان و بالعلوم والمعارف اللازمة لتقدم الحضارة والمدنية ، وأصبحوا فى مؤخرة الأمم وصاروا مضرب الأمثال فى التأخر والخمول والكسل ، و بذا استكانوا وذلوا وصاروا أفقر الأمم وأضعفهم وأقلهم خدمة لدينهم ، وخالفوا ما رسمه لهم ذلك الدين من أن لهم زينة

الدنيا وطيباتها وسعادتها وملكها ، وأن عليهم أن يشكروا الله على ما يؤتيهم من ذلك ، وأن عليهم أن يقوموا بما يرضيه من اتباع الحق والعدل وكل ما تقتضيه خلافتهم فى الأرض .

ولقد بلغ الجهل بكثير منهم أن ظن ( و بعض الظن إثم ) أن دين الإسلام هو سبب ضعف المسلمين وجهلهم وذهاب ملكهم ، ولكن كتاب الله وسنة رسوله وتاريخ هذه الأمة شاهد صدق على فساد هذه القضية وتزييف تلك الدعوى ، فليس لها من دعائم تستند إليها ، وتقف بها على رجليها .

---

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ (٣٢) .

## شرح المفردات

الفواحش: واحدها فاحشة، وهى الخصلة التى يقبح فعلها لدى أرباب الفطر السليمة والعقول الراجحة ؛ ويطلقونها أحيانا على الزنا والبخل والقذف بالفحشاء والبذاء المتناهى فى القبح ، والإثم لغة : القبيح الضار ، وهو شامل لجميع المعاصى كبائرها كالفواحش وصغائرها كالنظر بشهوة لغير الحليلة ، والبغى: تجاوز الحد، وقد قالوا بغى الجرح : إذا تجاوز الحد فى الفساد ، ومنه قوله تعالى : « فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَاهُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » .

## المعنى الجملى

بعد أن أنكر ـ تقدست أسماؤه ـ فى الآية السالفة على المشركين وغيرهم من أرباب الملل الأخرى تحريم زينة الله التى أخرجها لعباده والطيبات من الرزق — ذكر هنا

أصول المحرمات التى حرمها الله على عباده لضررها ، وجميعها من الأعمال الكسبية لا من المواهب الخُلُقية ، ليستبين للناس أن الله لم يحرم على عباده إلا ماهو ضار لهم .

## الإيضاح

( قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لاتعلمون ) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين وغيرهم ممن ظلموا أنفسهم وافتروا على الله الكذب فزعموا أن الله حرم على عباده ما أخرج لهم من الطيبات كما حرم عليهم الزينة : ما حرم ربى فى كتبه على ألسنة رسله إلا هذه الأنواع الست الآتية لما لها من شديد الضرر وعظيم الخطر على أنفسهم وعلى الأمة جمعاء ، ومن ثم جعل تحريمها دائما لا يباح بحال ، وهى :

( ١ ـ ٢ ) الفواحش الظاهرة والباطنة وتقدم بيانها وشرحها فى سورة الأنعام وهى إحدى الوصايا العشر التى ذكرت هناك .

(٣) الإثم أى ما يوجب الإثم والذم — وعطفه على ما قبله من عطف العام على الخاص .

(٤) البغى وهو الإثم الذى فيه تجاوز لحدود الحق أو اعتداء على حقوق الأفراد أو جماعاتهم ، ومن ثم قرن بالعدوان فى قوله : « تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ » .

وقيد البغى بكونه بغير الحق ، لأن تجاوز الحدود المعروفة قد يكون فيما لا ظلم فيه ولا فساد ولا هضم لحقوق الأفراد والجماعات كما فى الأمور التى ليس لهم فيها حقوق أو التى تطيب أنفسهم فيها عن بعض حقوقهم فيبذلونها عن رضى وارتياح لمصلحة لهم يرجونها ببذلها .

(٥) الشرك بالله وهو أقبح الفواحش ، فلا تقوم عليه حجة من عقل ولا برهان من وحى ، وسميت الحجة سلطانا لأن لها سلطانا على العقل والقلب .

وفى هذا إيماء إلى أن أصول الإيمان لا تقبل إلا بوحى من الله يؤيده البرهان كما قال : « وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ » .

كما أن فيه إرشادا إلى عظم شأن الدليل والبرهان فى الدين ، حتى كأنّ من جاء بالبرهان على الشرك يصدق ، وهذا من فرض المحال مبالغة فى فضل الاستدلال كما قال : « أَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ ؟ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

(٦) القول على الله بغير علم ، وهو من أسس المحرمات التى حرمت على ألسنة الرسل جميعا ، إذ هو منشأ تحريف الأديان المحرفة ، وسبب الابتداع فى الدين الحق ، وقد انتشر الابتداع بين أهله وتحكمت بينهم الأهواء واتبعوا سنن من قبلهم كما جاء فى الحديث : « لتتبعنّ سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم ؛ قلنا يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » رواه الشيخان ورأس البلية فى هذا الابتداع القول فى الدين بالرأى ، فما من أحد يبتدع أو يتبع مبتدعا إلا استدل على بدعته بالرأى ، وقد ظهرت مبادئ هذه البدع والأهواء فى القرون الأولى قرون العلم بالسنة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وما زال أمرها يستفحل حتى وصلت إلى ما نراه الآن .

وما شرع من اجتهاد الرأى فى حديث معاذ وغيره فهو خاص بالقضاء لا بأصول الدين وعباداته ، فقد أكمل الله دينه فلم يترك فيه نقصا يكمله غيره بظنه ورأيه بعد وفاة رسوله ، وليس لقاض ولا مفت أن يسند رأيه الاجتهادى إلى الله فيقول هذا حكم الله وهذا دينه ، بل يقول هذا مبلغ اجتهادى ، فإن كان صوابا فمن توفيق الله وإلهامه ، وإن كان خطأ فمنى ومن الشيطان .

والخلاصة — إنه لا ينبغى لأحد أن يحرم شيئا تحريما دينيا على عباد الله أو يوجب عليهم شيئا إلا بنص صريح عن الله ورسوله ، ومن تهجم على ذلك فقد جعل نفسه شريكا لله ، ومن تبعه فى ذلك فقد جعله ربا له ، ومن ثم كان فقهاء الصحابة والتابعين يتحامون القول فى الدين بالرأى .

وقد أنكر الله على من نسب إلى دينه تحليل شىء أو تحريمه من عنده بلا برهان فقال : « وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ » .

---

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) .

## المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه جماع المحرمات على بنى آدم لما فيها من المفاسد والمضار للأفراد والمجتمع إثر بيان المباحات من الزينة والطيبات من الرزق بشرط عدم الإسراف فيها — ذكر هنا حال الأمم فى قبول هذه الأصول أو ردها ، والسير على منهاجها بعد قبولها أو الزيغ عنها .

## الإيضاح

( ولكل أمة أجل ) أى قل أيها الرسول لقومك ولغيرهم : لكل أمة أمد مضروب لحياتها مقدر لها على حسب السنن التى وضعها الخالق لوجودها .

وهذا الأجل على ضربين ، أجل لوجودها فى الحياة الدنيا ، وأجل لعزها وسعادتها بين الأمم .

( فالأول ) أجل لأمة بعث فيها رسول لهدايتها فردوا دعوته كبرا وعنادا واقترحوا عليه الآيات فأعطوها مع إنذارهم بالهلاك إذا لم يؤمنوا فاستمروا فى تكذيبهم فأخذهم ربهم أخذ عزيز مقتدر ، كما حدث لقوم نوح وعاد وثمود وفرعون و إخوان لوط وغيرهم .

وهذا النوع من الهلاك كان خاصا بأقوام الرسل أولى الدعوة الخاصة بأقوامهم ،

وقد انتهى ذلك ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم الذى خاطبه الله بقوله : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » .

وقد مضت سنة الله فى الأمم أن الذين يقترحون الآيات لا يؤمنون بها ، ومن ثم لم يعط الله تعالى رسوله شيئا مما كانوا يقترحونه عليه .

( والثانى ) أجل مقدر لحياة الأمم سعيدة عزيزة باستقلالها ومكانتها بين الأمم وهذا منوط بسنن الله فى الاجتماع البشرى وعوامل الرقى والعمران .

وأسباب انتهاء هـذا الاجتماع لا تعدو مخالفة ما أرشدت إليه الآيات السالفة كإسراف فى الزينة أو إسراف فى التمتع بالطيبات ، أو باقتراف الفواحش والآثام والبغى على الناس ، أو بالتوغل فى خرافات الشرك والوثنية ، أو بالكذب على الله بإرهاق الأمة بما لم يشرعه الله لها من الأحكام .

فالأمم التى ترتكب هذه الضلالات والمفاسد يسلبها الله سعادتها ويسلط عليها من يستذلها كما قال تعالى : « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » .

وها كم شاهد صدق ما نقول :

إن الأمم التى كان لها شأن يذكر فى التاريخ كالرومان والفرس والعرب والترك وغيرهم ممن سلب ملكهم كله أو بعضه — لم يكن لذلك من سبب سوى ما أسلفنا .

وهذا الضرب من الأجل وإن عرفت أسبابه ، لا يمكن أن يحد بالسنين والأيام ولكن الله يعلم تحديده بما أوجده من الأسباب التى تنتهى بمسبباتها ، وبالمقدمات التى تترتب عليها نتائجها ، كما قال :

( فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ) الساعة لغة : أقل مدة من الزمن أى فإذا جاء الوقت الذى وقته الله لهلاكهم وحلول العقاب بهم لا يتأخرون عنه بالبقاء فى الدنيا أقل تأخر ، كما أنهم لا يتقدمون أيضا عن الوقت الذى جعله لهم وقتا للفناء والهلاك .

وفى الآية إيماء إلى أن الأمة قد تملك طلب تأخير الهلاك قبل مجيئه أى قبل أن تغلبها على إرادتها أسباب الهلاك ، بأن تترك الفواحش والآثام والظلم والبغى والإسراف المفسد للأخلاق وخرافات الشرك المفسدة للعقول وتترك البدع فى التحريم والتحليل بما لم يخاطب به المولى عباده ، بأن يقوم فيها جماعة من المصلحين ، فيرشدوها إلى تغيير ما بأنفسها من الفساد ، فيغير الله ما بها .

وهذا من استئخار الهلاك أو منعه عنها قبل مجىء أجلها .

وتأثير الفسق والفساد فى الأمم يشبه تأثيره فى الأفراد ، فكما أن الأطباء متفقون على أن السكر من أسباب الأمراض البدنيـة والعقلية التى تفضى إلى الموت ، وعلى أن تأثيره فى البدن القوى دون تأثيره فى البدن الضعيف ، وعلى أن القليل منه يبطئ تأثير ضرره عن تأثير ضرر الكثير منه ـ كذلك أطباء الاجتماع متفقون على أن الإسراف فى الفسق والترف مفسد للأمم ، وأن الظلم والبغى والغلوّ فى المطامع من أسباب الهلاك والدمار ، ولكن قد يكون لدى بعضها ما تقاوم به تأثير هذه الأدواء الاجتماعية كالنظام ومراعاة سنن الاجتماع حتى فى إخفاء الظلم و إتقان الوسائل والأسباب فى إلباس الظلم لباس العدل و إبراز إفسادها فى صورة الإصلاح و إيجاد أنصار من المظلومين يساعدون فى بقاء هذا الظلم ، و إقناع الكثير منهم بأن هذا خير لهم وأبقى ، غير أن كل هذا لا يمنع انتقام الله منهم ، و إنما يؤخره على مقتضى سننه فى عباده ، ولا يمنعه عنهم إلا الرجوع إلى الحق والاعتدال والصلاح والإصلاح .

والأجل المقدر بمقتضى نظام الخلق هو الذى يسميه العلماء بالعمر الطبيعى ، فالطبيب إذا فحص الجسم ورأى أعضاءه الرئيسيـة ومقدار مناعتها أمكنه أن يقدر له مدة معينة من الحياة إذا عاش بنظام واعتدال على حسب ما وضعه الله من السنن ، فإذا هو قتل أو غرق قبل انتهاء العمر المقدر له يقال مات قبل انتهاء عمره الطبيعى أو التقديرى ولكن مات بأجله الحقيقى عند الله .

وما ورد من أن الدعاء وصلة الرحم يطيلان العمر ، فإنما ذلك بالنسبة للأجل التقديرى أو الطبيعى الذى هو مظهر سنن الله فى الأسباب والمسببات ، فإن الدعاء الذى منشؤه قوة الإيمان بالله والرجاء فى معونته وتوفيقه للمؤمن فيما يعجز عن أسبابه، من أسباب طول العمر ، وكذلك صلة الرحم من أهم أسباب هناء العيش ، وهناؤه من أهم العوامل فى إطالة العمر .

كما دلت التجارب على أن الهموم والأكدار خصوصا ما كان منها داخليا كقطيعة الأرحام واليأس من روح الله ومعونته مما يضعف قوى النفس ويهرم الجسم قبل إبان هرمه ، وقد عرف هذه الحقيقة ذلك الشارع الحكيم حين قال :

والهم يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصبي ويهرم

ومثلها فى ذلك قلة الغذاء الذى يحتاج إليه البدن أو كثرته ، والإسراف فى كل لذة ، والسكنى فى الأمكنة التى لا يدخلها ضوء الشمس ولا يتخللها الهواء بالقدر الذى يقتل الجراثيم .

والأمم العريقة فى المدنية والحضارة والعالمة بالسنن الإلهية فى الصحة والسقم والقوة والضعف تحصى دائما عدد المرضى والموتى وتضع لذلك نسبا حسابية تعرف بها متوسط الآجال فى كل منها .

وكذلك قد ثبت ثبوتا لا ريب فيه أن من أسباب قلة الوفيات تحسين وسائل المعيشة والاعتدال فيها ، وتوقى الأمراض باجتناب أسبابها المعروفة قبل وقوعها ومعالجتها بعد حدوثها .

وكل ما يقع فالعلم الإلهى قد سبق به ، وكتاب الله وسنة رسوله يؤيدان ذلك أتم التأييد .

وخلاصة معنى الآية — إن لكل أمة أجلا لا يتأخرون عنه إذا جاء ، ولا يتقدمون عليه أيضا ، فيهلكوا قبل مجيئه ، ونحو الآية قوله : « مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ » .

يَا بَنِى آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِى ، فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦)

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر جلت أسماؤه أن لكل أمة أجلا لاتعدوه — حكى هنا ماخاطب به كل أمة على لسان رسولها و بيّنه لها من أصول الدين الذى شرعه لهدايتها وتكميل فطرتها ، وأرشدها إلى أنها إن كانت مطيعة تتقى الله فيما تأتى وتذر ، وتصلح أعمالها فلايحصل لها فى الآخرة خوف ولا حزن ، و إن هى تمردت واستكبرت وكذبت الرسل كانت عاقبتها النار ، و بئس القرار .

## الإيضاح

( يا بنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون ) أى يابنى آدم إن يأتكم رسل من أبناء جنسكم من البشر يتلون عليكم آياتى التى أنزلها عليكم لبيان ما آمركم به من صالح الأعمال وترك ما أنهاكم عنه من الشرك والرذائل وقبيح الأعمال — فمن اتقى منكم مانهيته عنه وأصلح نفسه بفعل ما أوجبته عليه فلا خوف عليهم من عذاب الآخرة ، ولاهم يحزنون حين الجزاء على ما فاتهم .

وحكمة كون الرسول منهم أنه أقطع لعذرهم وأظهر فى الحجة عليهم ، إذ معرفتهم بأحواله تبين لهم أن المعجزات التى ظهرت على يديه إنما هى بقدرة الله لا بقدرته — إلى مافى ذلك من حصول الألفة ، فالجنس يألف الجنس ويركن إليه ، ومن ثم قال : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً »

( والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون )

الاستكبار عن قبول الآيات : رفضها كبرا وعنادا لمن جاء بها كما حدث من رؤساء قريش حين استكبروا أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم إماما لهم ، إذ رأوا أنفسهم أحق بالرياسة منه ، لأنهم أكثر منه مالاً وأعز نفرا .

والمعنى — إن الذين كذبوا بآياتنا المنزلة على أحد من رسلنا واستكبروا عن اتباع من جاء بها حسدا له على الرياسة وتفضيلا لأنفسهم عليه ، أو لقومهم على قومه فأولئك أصحاب النار يخلدون فيها أبدا .

والخلاصة — إن جميع الرسل قد بلغوا أممهم أن اتقاءهم لما يفسد فطرتهم من الشرك والمعاصى ، وإصلاح أنفسهم بالطاعة يوجب الأمن وعدم الخوف مما يتوقع وعدم الحزن على ما وقع منهم فى الدار الأولى ، وأن تكذيب ما جاءوا به من الآيات والاستكبار عن اتباعها يترتب عليه المكث فى نار جهنم خالدين فيها أبدا كفاء ما فعلوا من التمرد وعصيان أوامر الديان .

---

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) قَالَ ادْخُلُوا فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِى النَّارِ ، كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ ، قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى الآية السابقة عاقبة المكذبين بآياته المستكبرين عن قبولها والإذعان لها ـ ذكر هنا أن من أشدهم ظلما من يتقولون على الله الكذب ، فينسبون إليه مالم يقله ، كمن يثبت الشريك لله سواء كان صنما أو كوكبا ، أو يضيف إليه أحكاما باطلة ، أو يكذب ما قاله كمن ينكر أن القرآن نزل من عند الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

## الإيضاح

( فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ) أى لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله بأن أوجب على عباده من العبادات مالم يوجبه ، أو حرم عليهم من الدين مالم يحرمه ، أو عزا إلى دينه أحكاما لم تنزل على رسله .

( أو كذب بآياته ) المنزلة عليهم سواء أكان بالقول أو بما هو أدل منه كالاستهزاء بها أو الاستكبار عن اتباعها أو بتفضيل غيرها عليها بالعمل بها .

( أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ) المراد بالنصيب هنا ما قدر لهم من خير أو شر وسعادة أو شقاء ، والمراد من الكتاب كتاب المقادير الذى كتب الله فيه نظام العالم كله ، ومنها أعمال الأحياء الاختيارية وما يبعث عليها من الأسباب والدواعى وما يترتب عليها من المسببات كالسعادة والشقاء والصحة والمرض إلى نحو ذلك .

والمعنى — إن هؤلاء المفترين يصيبهم نصيبهم مما كتب لهم وقدر من الأرزاق والآجال ، فهم مع ظلمهم وافترائهم على الله لا يحرمون مما قدر لهم إلى انقضاء آجالهم .

ونحو الآية قوله تعالى : « كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ » وقوله : « نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ » .

( حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ) الرسل هنا هم الملائكة الموكلون بالتوفى أى قبض الأرواح من الأجساد ، أى إنهم ينالهم نصيبهم الذى كتب لهم مدة حياتهم حتى إذا ما انتهى بانتهاء آجالهم وجاءتهم رسلنا يقبضون أرواحهم .

( قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله ؟ ) أى سألهم رسل الموت حين التوفى على سبيل الزجر والتوبيخ : أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم فى الدنيا من دون الله لقضاء الحاجات ودفع المضرات ؟ فلتدعوهم لينجوكم مما أنتم فيه من شدة وعذاب .

( قالوا ضلوا عنا ) ضلوا : أى غابوا وذهبوا ، لاندرى أين مكانهم ، أى غابوا عنا فلا نرجو منهم النفع ولا دفع الضر .

( وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ) أى واعترفوا على أنفسهم بأنهم كانوا بدعائهم إياهم وعبادتهم لهم كافرين ، إذ هم قد زعموا أنهم عنده تعالى كأعوان الأمراء والسلاطين ، وحاش لله أن يتخذ الأعوان والمساعدين ، فالله غنى بعلمه المحيط وقدرته الكاملة عن أن يحتاج إلى الأعوان ، فإنما يحتاج إليها من يجهل أمور الناس ويعجز عن معرفة أحوالهم .

وخلاصة هذا — زجر الكافرين عما هم عليه من الكفر وحملهم على النظر والتأمل فى عواقب أمورهم ، والتحذير من التقليد الذى سيردیهم فى الهاوية .

( قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار ) أى يقول ملائكته بأمره يوم القيامة لهؤلاء الكافرين : ادخلوا بين أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس ، أى أمم تقدم زمانهم على زمانكم .

وفى هذا إيماء إلى أنه تعالى لايسوق الكفار بأجمعهم إلى النار دفعة واحدة ، بل يدخلهم فوجا فوجا فيكون منهم سابق ومسبوق ، ويشاهد الداخل من الأمة فى النار من سبقه .

( كلما دخلت أمة لعنت أختها ) أى كلما دخلت جماعة منهم فى النار ورأت

ما حل بها من الخزى والنكال ـ لعنت أختها فى الدين والملة ، إذ هى قد ضلت باتباعها والاقتداء بها فى كفرها كما قال : « وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » .

والخلاصة — إن المشركين يلعنون المشركين ، واليهود تلعن اليهود ، والنصارى تلعن النصارى ، وهكذا القول فى سائر الديانات الضالة كالمجوس والصابئة .

( حتى إذا ادّاركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ) ادّاركوا ، أى تلاحقوا وأدرك بعضهم بعضا واستقر معه ، وضعفا أى مثلا أى حتى إذا تتابعوا واجتمعوا كلهم فيها ، قالت أخرى كل منهم وهم أتباعهم وسِفلتهم لأولاهم منزلة وهم القادة والرؤساء : ربنا هؤلاء أضلونا عن الحق باتباعنا لهم وتقليدنا إياهم فيما كانوا عليه من أمر الدين وسائر أعمالنا ، فأعطهم ضعفا من عذاب النار لإضلالهم إيانا فوق العذاب على ضلالهم فى أنفسهم حتى يكون عذابهم ضعفين : ضعفا للضلال ، وضعفا للاضلال .

ومعنى قوله لأخراهم أى فى شأنهم ولأجل ضلالهم ، وليس المراد أنهم ذكروا هذا القول لأولاهم ، لأنهم ما خاطبوهم ، بل خاطبوا الله جلت قدرته بهذا الكلام .

( قال لكلّ ضعف ولكن لا تعلمون ) أى يقول الله تعالى لهم : لكل منهم ضعف من العذاب بإضلاله فوق عذابه على ضلاله ، ولكنكم لا تعلمون عذابهم ، فإن العذاب روحى ونفسى ، والأول أنكى وأشد ألما ، فالرئيس العزيز فى قومه إذا دخل السجن مع السفلة وأوشاب الناس لا يكون ألمه كألمهم ، وإن كان يشركهم فيما يأكلون ويشربون وفى جميع ما يعملون ، إذ يشعر بعذاب النفس وقهر الذل مما لا يشعر به الآخرون ، وإن كانوا يظنون أن عقوبتهما واحدة فى ألمها كما هى فى صورتها .

ونحو الآية قوله فى الآية الأخرى : « لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » .

( وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ) أى إذا كان الأمر كما ذكرتم من أننا أضللناكم فما كان لكم علينا أدنى فضل تطلبون به أن يكون عذابكم دون عذابنا مع أن الذنب واحد وقد اعترفتم بتلبسكم بالضلال المقتضى له ، فذوقوا العذاب بكسبكم له مهما يكن سببه ، وقد جاء فى سورة الصافات : « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ . قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِينَ . فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ . فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ . فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ » .

---

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ (٤١)

## شرح المفردات

المراد بالآيات هنا : الآيات الدالة على أصول الدين وأحكام الشرع كالأدلة على وجود الله ووحدته ، والأدلة على النبوة والبعث يوم القيامة ، والجمل هو البعير البازل أى الذى طلع نابه ، وسمّ الخياط : ثقب الإبرة ، وأصل الإجرام : قطع الثمرة من الشجرة ، ثم استعمل فى كل إفساد كإفساد الفطرة بالكفر وما يترتب على ذلك من الخرافات والمعاصى ، والمهاد : الفراش ، والغواش : واحدها غاشية ، وهى ما يغشى الشىء أى يغطيه ويستره كاللحاف ونحوه .

## المعنى الجملى

هذا من تتمه ما سلف من وعيد الكفار وجزاء المكذبين بالقرآن المستكبرين عن الإيمان ، بين به أنهم خالدون فى النار، وأنهم يلاقون فيها من الشدائد والأهوال مالا يدرك العقل حقيقة كنهه ، وأن هذا كفاء ظلمهم لأنفسهم واستكبارهم عن طاعة ربهم واتباع أوامره .

## الإيضاح

( إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء ) أى إن الذين كذبوا بأدلتنا ولم يتبعوا رسلنا وتكبروا عن التصديق بما جاءوا به ، وأنفوا من الانقياد لها ـ لا تفتح لأرواحهم إذا خرجت من أجسادهم أبواب السماء ، ولا يصعد لهم فى حياتهم قول ولا عمل ، لأن أعمالهم خبيثة ، وإنما يرفع إلى الله الكلم الطيب والعمل الصالح كما قال : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » .

( ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط ) العرب تضرب المثل لما لا يكون بنحو قولهم : لاأفعله حتى يشيب الغراب ، وحتى يبيض القار ، وحتى يدخل الجمل فى سم الخياط ، وهم يريدون بذلك أنهم لا يفعلونه أبدا ، والمراد هنا أن هؤلاء لا يدخلون الجنة بحال .

( وكذلك نجزى المجرمين ) أى ومثل هـــذا الجزاء نجزى به كل من صار الإجرام وصفا لهم ـ لامَن أجرموا جرما بثورة غضب أو نزوة شهوة ثم لايلبثون أن يندموا على ما فرط منهم كما قال تعالى فى وصف المؤمنين : «ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ» وقال أيضا : « وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَافَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » .

( لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ) أى لهم من نار جهنم فرش من تحتهم ، ولهم من فوقهم منها لحف تغطيهم ، والمراد أنها محيطة بهم مطبقة عليهم كما قال :

« إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ » وقال : « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ » وقال : « لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ » .

(وكذلك نجزى الظالمين) أى ومثل هذا الجزاء نجزى به الظالمين لأنفسهم وللناس، والآيتان تدلان على أن المجرمين والظالمين الراسخين فى صفتى الإجرام والظلم هم الكافرون كما قال : «وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ» والمؤمنون لا يكونون كذلك بحال.

---

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ، لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) .

## شرح المفردات

الوسع : ما يقدر عليه الإنسان حال السعة والسهولة ، لا حال الضيق والشدة ، والنزع : قلع الشىء من مكانه ، والغل : الحقد من عداوة أو حسد ، أورثتموها ، أى صارت إليكم بلا منازع كما يصير الميراث إلى أهله .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر عزّ اسمه وعيد أهل الكفر والمعاصى ـ أردفه بوعد أهل الطاعات وقد جرت سنة القرآن بالجمع بينهما ، فيبدأ بأحدهما لمناسبة سياق الكلام قبله ثم يقفوه بالآخر .

# الإيضاح

( والذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ لانكلف نفسا إلا وسعها ـ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ) أى والذين صدقوا الله ورسوله وأقروا بما جاءهم به من وحى الله وتنزيله وشرائع دينه وعملوا ما أمرهم به وتجنبوا ما نهاهم عنه ـ هم أهل الجنة دون سواهم ، وهم يخلدون فيها أبدا لايخرجون منها ولا يسلبون نعيمها .

ومعنى قوله : ( لا نكلف نفسا إلا وسعها ) أننا لا نفرض على المكلف إلا ما يكون فى وسعه ومالايشق عليه أداؤه ولايضيق به ذرعا ـ وقد جاءت هذه الجملة أثناء الكلام للتنبيه إلى أن العمل الصالح الذى يوصل إلى الجنة سهل غير صعب ، وميسور لا عسر فيه ولا مشقة .

( ونزعنا ما فى صدورهم من غلّ تجرى من تحتهم الأنهار ) أى وأذهبنا ما كان فى قلوب هؤلاء الذين ذكرت صفتهم من حقد وضغن مما يكون عادة فى الدنيا . فهم لا يدخلون الجنة وفى قلوبهم أدنى عداوة أو بغضاء مما يكون من أسباب تنغيص النعيم فيها ، حال كون الأنهار تجرى من تحتهم فيرونها وهم فى غرفات قصورهم تتدفق فى جنانها و بساتينها ، فيزدادون حبورا وسرورا لا تشوب صفاءهم شائبة كدر .

روى ابن أبى حاتم عن الحسن البصرى قال : بلغنى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يحبس أهل الجنة بعد ما يجوزون الصراط حتى يؤخذ لبعض من بعض ظلاماتهم فى الدنيا ، فيدخلون الجنة وليس فى قلوب بعضهم على بعض غلٌّ » .

وروى عن قتادة أن عليا كرم الله وجهه قال : إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم « ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا » .

( وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهـذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ) أى وقالوا شاكرين لله بألسنتهم معبرين عن غبطتهم و بهجتهم : الحمد لله الذى هدانا

فى الدنيا للايمان الصحيح والعمل الصالح الذى كان جزاؤه هذا النعيم ، وما كان من شأننا ولا مقتضى فكرنا أن نهتدى إليه بأنفسنا لولا أن هدانا الله إليه بتوفيقه إيانا لاتباع رسله ومعونته لنا عليها ورحمته الخاصة بنا ـ إلى هدايته التى فطرنا عليها وهداية ما خلق لنا من المشاعر والعقل .

(لقد جاءت رسل ربنا بالحق) أى إنهم قالوا حين رأوا ماوعدهم به الرسل عيانا : لقد جاءت رسل ربنا بالحق ، وهـذا مصداق ماوعدنا به فى الدنيا على التوحيد وصالح العمل .

(ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) أى وناداتهم الملائكة قائلة لهم : تلكم هى الجنة التى وعدتم بوراثتها جزاء صالح أعمالكم .

أخرج ابن جرير عن السدى قال : ليس من مؤمن ولا كافر إلا وله فى الجنة والنار منزل مبين ، فإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ودخلوا منازلهم رفعت الجنة لأهل النار فنظروا إلى منازلهم فيها فقيل هـذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله ، ثم يقال: يا أهل الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ، فيقتسم أهل الجنة منازلهم .

وأخرج سعيد بن منصور والبيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار ، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله : أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ » .

وفى الآية دلالة واضحة على أن الجنة تنال بالعمل ، وفى معناها آيات وأحاديث كثيرة .

أما حديث أبى هريرة الذى رواه الشيخان « لن يُدخِل أحدا عملُه الجنة ـ قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضله ورحمته » فيراد منه أن عمل الإنسان مهما كان عظيما فلا يستحق به الجنة لذاته لولا رحمة الله وفضله ، حين جعل هذا الجزاء العظيم على ذلك العمل القليل ، فدخول الجنة بالعمل دخول بفضل

الله ورحمته ، ومن ثم قال بعده « فسددوا وقاربوا » أى لا تبالغوا ولا تغلوا فى دينكم ولا تتكلفوا من العمل مالا طاقة لكم به .

---

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ قَالُوا نَعَمْ ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ، وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) .

## شرح المفردات

الوعد خاص بما كان فى الخير ، أو يشمل الخير والشر وهو الصحيح ، والوعيد خاص بالشر أو السوء ، فتسمية ما كان لأهل النار وعدا إما من قبيل التهكم أو للمشاكلة ، والتأذين رفع الصوت بالإعلام بالشىء ، واللعنة الطرد والإبعاد مع الخزى والإهانة ، وصدّ عن الشىء : أعرض عنه ، وعوجا أى ذات عوج أى غير مستوية ولا مستقيمة حتى لا يسلكها أحد ، والعوج ( بفتح العين ) مختص بالمرئيات ( وبكسر العين ) مختص بما ليس بمرئىّ كالرأى والقول ، والحجاب هو السور الذى بين الجنة والنار كما قال فى سورة الحديد : « فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ » والأعراف واحدها عرف ( بزنة قفل ) وهو أعلى الشىء وكل مرتفع من الأرض وغيرها ، ومنه عرف الديك والفرس

والسحاب ، والسيا والسيمياء : العلامة ، وصرفت أى حولت ، والتلقاء : جهة اللقاء ، وهى جهة المقابلة يقال فلان تلقاء فلان إذا كان حذاءه .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه وعيد الكفار وثواب أهل الإيمان — عقب ذلك ببيان بعض ما يكون بين الفريقين فريق أهل الجنة وفريق أهل السعير من المناظرة والحوار بعد استقرار كل منهما فى داره .

وفيها دليل على أن الدارين فى أرض واحدة يفصل بينهما سور لا يمنع إشراف أهل الجنة وهم فى أعلى عليين على أهل النار وهم فى هاوية الجحيم ، وأن بعضهم يخاطب بعضا بما يزيد أهل الجنة عرفانا بقيمة النعمة ، ويزيد أهل النار حسرة وشقاء على ما كان من التفريط فى جنب الله .

وهذا التخاطب لا يقتضى قرب المكان على ما هو معهود فى الدنيا ، فعالم الآخرة عالم تغلب فيه الروحانية على ظلمة الكثافة الجسدية ، فيمكن الإنسان أن يسمع من بعيد المسافات ، ويرى من أقاصى الجهات .

وإن ما جدّ الآن من المخترعات والآلات التى يتخاطب بها الناس من شاسع البلاد وتفصل بينهما ألوف الأميال إما بالإشارات الكتابية كالبرق — التلغراف اللاسلكى والسلكى — وإما بالكلام اللسانى كالمسرة — التليفون اللاسلكى والسلكى — ليقرّب هذا أتم التقريب ، ويزيدنا فهما له .

وقد تم لهم الآن أن يروا صورة المتكلم بالتليفون مطبوعة على الآلة التى بها الكلام وأن ينقلوا الصور من أقصى البلدان إلى أقصاها بهذه الآلة .

## الإيضاح

( ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ ) أى إن أصحاب الجنة حين استقرارهم فى الجنة واستقرار

أهل النار فى النار ـ إذا ما وجهوا أبصارهم إليهم يسألونهم سؤال افتخار على حسن حالهم ، وسؤال تهكم وتذكير بجناية أهل النار على أنفسهم بتكذيب الرسل ، وسؤال تقرير لهم بصدق مابلّغهم الرسل من وعد ربهم لمن آمن واتقى بجنات النعيم قائلين لهم : قد وجدنا ما وعدنا ربنا على ألسنة رسله من النعيم والكرامة حقا لاشبهة فيه ، وهانحن أولاء : نستمتع بما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ـ فهل وجدتم ما أوعدكم ربكم من الخزى والنكال حقا ؟

( قالوا نعم ) أى قد وجدنا ما أوعدنا به ربنا حقا كما بُلغنا على ألسنة الرسل .

( فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ) أى فكان ردف السؤال والجواب وقيام الحجة عليهم ـ أن أذن مؤذن قائلا : لعنة الله على الظالمين لأنفسهم الجانين عليها بما أوجب حرمانها من النعيم المقيم ، وهذا المؤذن إما مالك خازن النار ، وإما ملك غيره يأمره الله بذلك .

ثم بين المراد من الظالمين فقال :

( الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ) أى إنهم هم الذين يعرضون عن سلوك سبيل الله الموصلة إلى مرضاته وثوابه ، ويمنعون الناس عن سلوكها ، ويبغونها معوجة حتى لايسلكها أحد .

وبغى الظالمين وطلبهم اعوجاج السبيل يجىء على ضروب شتى :

(١) تدسية أنفسهم بالظلم العظيم وهو الشرك فيشوبوا التوحيد بشوائب الوثنية فى العبادة والدعاء ويشركوا مع الله غيره على أنه شفيع عنده ووسيلة إليه ، وهو مانهى الله عنه بقوله : « وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ» وقوله تعالى « حُنَفَاءَ لِلهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ » .

(٢) ظلمهم لها بالابتداع إذيبغونهاعوجا بما يزيدون فى الدين من البدع والمحدثات التى لم يرد بها كتاب ولا سنة ، ومستندهم فى ذلك تأويلات جدلية ومحاولات

للتوفيق بين الدين والفلسفة فى الاعتقاديات ، أو زيادات فى العبادات والشعائر كحفل الموالد وترتيلات الجنائز وأذكار المآذن وتحريم ما لم يحرمه الله من الطيبات من الرزق ، أو تحليل ما حرم الله كبناء المساجد على القبور و إيقاد المصابيح والشموع وغيرها عليها .

(٣) ظلمهم لها بالزندقة والنفاق إذ يبغونها عوجا بالتشكيك فيها بضروب من التأويل يقصد بها بطلان الثقة بها والصد عنها .

(٤) ظلمهم لها فى الأحكام فيبغونها عوجا بترك الحق ، و إقامة ميزان العدل ، والمساواة بين الناس بالقسط .

(٥) ظلمهم لها بالغلوّ فيها بجعل يسرها عسرا وسعتها ضيقا بزيادتهم على ماشرعه الله من أحكام العبادات والمحظورات والمباحات ، مما نزل فى كتابه وصح من سنة رسوله .

( وهم بالآخرة كافرون ) وهم على ضلالهم و إضلالهم كافرون بالآخرة كفرا متأصلا فى نفوسهم ، فلا يخافون عقابا على جُرْمهم ، ولا ذما ولوما على إنكارهم يوم البعث والجزاء .

والخلاصة — إنهم جمعوا بين الصد عن سبيل الله و بغيها عوجا ، و إنكار البعث والجزاء .

( و بينهما حجاب ) أى و بين الفريقين فريق أهل الجنة وأهل النار حجاب يفصل كلا منهما من الآخر و يمنعه من الاستطراق إليه .

وهذا الحجاب هو السور الذى سيأتى ذكره فى سورة الحديد بقوله : « يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ، قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ، فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ » الآية .

( وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ) أى وعلى أعالى ذلك السور رجال يرون أهل الجنة وأهل النار جميعا قبل الدخول فيها ، فيعرفون كلا منهما بسيماهم التى وصفهم الله بها فى نحو قوله : «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ . وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ » .

وهؤلاء الرجال هم طائفة من الموحدين قصرت بهم سيئاتهم عن الجنة ، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار ، جعلوا هناك حتى يقضى بين الناس ، فبينما هم كذلك إذ يطلع عليهم ربهم فيقول : قوموا ادخلوا الجنة فإنى قد غفرت لكم ، أخرجه أبو الشيخ والبيهقى وغيرهما عن حذيفة ، وفى رواية عنه :

يجمع الله الناس ثم يقول لأصحاب الأعراف : ما تنتظرون ؟ قالوا ننتظر أمرك فيقال : إن حسناتكم تجاوزت بكم النار أن تدخلوها ، وحالت بينكم و بين الجنة خطاياكم فادخلوها بمغفرتى ورحمتى .

( ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم ) أى ونادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة قائلين لهم : سلام عليكم ، وهذا السلام إما تحية ودعاء وإما إخبار بالسلامة من المكروه والنجاة من العذاب ، هذا إن كان قبل دخول الجنة ، فإن كان بعدها فهو تحية خالصة تدخل فى عموم قوله تعالى « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا » .

( لم يدخلوها وهم يطمعون ) أى نادوهم مسلمين عليهم حال كونهم لم يدخلوها بعد وهم طامعون فى دخولها ، لما بدا لهم من يسر الحساب ، وقد جاء فى الآثار أن الناس يكونون فى الموقف بين الخوف والرجاء ، لا تطمئن قلوب أهل الجنة حتى يدخلوها .

روى أبو نعيم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : لو نادى مناد يا أهل

الموقف ادخلوا النار إلا رجلا واحدا لرجوت أن أكون ذلك الرجل ، ولو نادى : ادخلوا الجنة إلا رجلا واحدا لخشيت أن أكون ذلك الرجل .

( وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين ) أى وكلما وقعت أبصار أصحاب الأعراف على أهـــل النار تضرعوا إلى الله تعالى ألا يجعلهم مثلهم ، والمقصود من الآية الإنذار والتخويف ليتبصر المرء فى عاقبة أمره ، فيفوز بالثواب المقيم فى جنات النعيم .

وفى التعبير بصرف الأبصار وتحويلها إيماء إلى أنهم يوجهون أبصارهم إلى أصحاب الجنة بالقصد والرغبة ويلقون إليهم السلام ، ويكرهون رؤية أهل النار ، فإذا حولت أبصارهم إليهم من غير قصد ولا رغبة ، بل بصارف يصرفهم إليها ، قالوا ربنا لاتجعلنا معهم حيث يكونون ، وفى ذلك من استعظام حال الظالمين ، واستقطاع مآلهم وشناعة أمرهم مالايخفى .

وعن سعيد بن جبير أن ابن مسعود رضى الله عنه قال: «يحاسب الله الناس يوم القيامة ، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ، ثم قرأ قول الله « فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ » الآيتين ، ثم قال : إن الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح . ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف ، فوقفوا على الصراط ، ثم عرض أهل الجنة وأهل النار ، فإذا نظروا إلى أهل الجنة قالوا : سلام عليكم ، وإذا صرفت أبصارهم إلى يسارهم رأوا أهل النار فقالوا ( ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ) تعوذوا بالله من منازلهم . قال : فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نورا يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم ، ويعطى كل عبد يومئذ نورا وكل أمة نورا ، فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة . فلما رأى أهل الجنة ما لقى المنافقون « قَالُوا رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا » وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان فى أيديهم فلم ينزع من أيديهم ، فهنالك يقول الله تعالى ( لم يدخلوها وهم يطمعون ) فكان الطمع دخولا » .

قال سعيد : فقال ابن مسعود . على أن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر ، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة ثم قال : هلك من غلب وُحْدانه أعشاره . اه .

---

وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ؟ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩)

## الإيضاح

( ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ) هذا نداء آخر من بعض أصحاب الأعراف لبعض المستكبرين الذين كانوا يعتزون فى الدنيا بغناهم وقوتهم، ويحتقرون ضعفاء المؤمنين لفقرهم وضعف عصبيتهم أو لحرمانهم من عصبية تمنعهم وتذود عنهم ، ويزعمون أن من أغناه الله وجعله قويا فى الدنيا فهو الذى يكون له نعيم الآخرة كما قال تعالى « وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » .

ومن هؤلاء زعماء قريش وطغاتها الذين قاوموا الإسلام فى مكة واضطهدوا أهله كأبى جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل .

والسيما التى يعرفونهم بها هى سواد الوجوه وزرقة العيون وتشويه الخَلْق ؛ واختار أبو مسلم أنهم يعرفونهم بسيماهم الخاصة التى كانوا عليها فى الدنيا ، وقيل بسيما

المستكبرين ؛ إذ قد جاء فى الأثر ما يدل على أن لمن تغلب عليهم رذيلة خاصة ـ علامة يدل عليهم يُعرفون بها ؛ فقد روى البخارى « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيعرفه فيشفع له ، فلا تقبل شفاعته ، ثم يمسخه الله ذئبا منتنا ليزول عن إبراهيم خزيه » فمسخه ذئبا مناسب لحماقته ونتن الشرك .

والخلاصة ـ إنهم نادوهم قائلين لهم : ما أغنى عنكم جمعكم للمال ولا استكباركم على المستضعفين والفقراء من أهل الإيمان ، إذ لم يمنع عنكم العقاب ، ولا أفادكم شيئا من الثواب .

ثم وجه إليهم سؤال توبيخ وتأنيب بحضرة هؤلاء المستضعفين فقيل لهم :

( أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ؟ ) أى وقالوا لهم مع الإشارة إلى أولئك المستضعفين الذين كانوا يضطهدونهم ويعذبونهم فى الدنيا كصهيب الرومى وبلال الحبشى وآل ياسر ، والتهكم من خزيهم وفوز من كانوا يحتقرونهم : أهؤلاء الذين حلفتم فى الدنيا إن رحمة الله لن تنالهم ؟ إذ لم يعطوا فى الدنيا مثل ما أعطيتم من الأتباع والأشياع وكثرة المال .

( ادخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون ) أى وقال الله تعالى لأصحاب الأعراف بعد أن يحبسوا على الأعراف ، وينظروا إلى الفريقين ويعرفوهم بسيماهم ويقولوا مايقولون : ادخلوا الجنة لاخوف عليكم مما يكون فى مستقبل أمركم ، ولا أنتم تحزنون مما ينغص عليكم حاضركم .

وفائدة هذه المقالة بيان أن الجزاء على قدر الأعمال ، وأن أحدا لايسبق عند الله إلا بسبقه فى العمل ، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه ، وليرغب السامعون فى حال السابقين ، وليعرفوا أن كل أحد يعرف فى ذلك اليوم بسيماه التى يوسم بها ، سواء أكان من أهل الخير أم من أهل الشر ، فيزيد المحسن فى إحسانه ويرتدع المسىء عن إساءته ، وليعلموا أن العصاة يوبخهم كل أحد حتى أقل الناس عملا .

وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ . قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ، وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١)

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مقال أهل الجنة لأهل النار ومقال أصحاب الأعراف لأهل النار ــ أردف ذلك بمقال أهل النار لأهل الجنة وطلبهم منهم بعض ما عندهم من نعم الله عليهم .

## الإيضاح

( ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ) إفاضة الماء: صبه، ثم استعملت فى الشىء الكثير فيقال : فاض الرزق والخير ، وأفاض عليه النعم ، وقالوا أعطاه غيضا من فيض أى قليلا من كثير ، وما رزقهم الله يشمل الطعام والأشربة غير الماء .

والمعنى ــ أن أهل النار يستغيثون بأهل الجنة و يطلبون منهم أن يفيضوا عليهم من النعم الكثيرة التى يتمتعون بها من شراب وطعام .

وعن ابن عباس ينادى الرجل أخاه فيقول : يا أخى أغثنى فإنى قد احترقت فأفض علىّ من الماء ، فيقال : أجبه فيقول : إن الله حرمهما على الكافرين .

وعن أبى الدرداء إن الله يرسل على أهل النار الجوع حتى يزداد عذابهم فيستغيثون فيغاثون بالضريع ( نبات رطبه يسمى شِبْرِقا ، ويابسه يسمى ضريعا لاتقربه دابة لنتن ريحه ) لايسمن ولا يغنى من جوع ، ثم يستغيثون فيغاثون بطعام

ذى غصة ، ثم يذكرون الشراب و يستغيثون فيدفع إليهم الحميم والصديد بكلاليب الحديد فيقطع ما فى بطونهم و يستغيثون إلى أهل الجنة ، فيقول أهل الجنة : إن الله حرمهما على الكافرين .

وهذا طلب منهم مع علمهم باليأس من إجابته ، إذ هم يعرفون دوام عقابهم وأنه لا يفتر عنهم أبدا ، ولكن اليأس من الشىء قد يطلبه كما قالوا فى أمثالهم ( الغريق يتعلق بالزبد ) .

( قالوا إن الله حرمهما على الكافرين . الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا ) التحريم المنع وهو إما تحريم تكليف كتحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، و إما تحريم قهر كتحريم الجنة ومافيها على الكافرين فى مثل هذه الآية .

والمعنى — إن أهل الجنة قالوا جوابا عن هذا الاستجداء : إن الله قد حرم ماء الجنة ورزقها على الكافرين ، كما حرم عليهم دخولها ، فلا سبيل لإفاضة شىء منهما عليهم وهم فى النار ، إذ ليس لهم إلا ماؤها الحميم ، وطعامها من الضريع والزقوم .

وقد وصف أهل الجنة الكافرين بأنهم هم الذين كانوا السبب فى هذا المنع والحرمان ، إذ جعلوا دينهم أعمالا لا تزكى الأنفس ولا تجعلها أهلا للتشريف والكرامة ، بل هى إما لهو يشغل الإنسان عن الجد والأعمال المفيدة ، و إما لعب لايقصد منه فائدة صحيحة فهو كأعمال الأطفال ، وقد غرتهم الحياة الدنيا بشهواتها ولذاتها من الحرام والحلال ، أما أهل الجنة فقد سعوا لها سعيها ، وعلموا أن الدنيا مزرعة الآخرة ، ومن ثم لم يكن من قصدهم من التمتع بنعم الله إلا الاستعانة بها على ما يرضيه من إقامة الحق والعدل ، والاستعداد لحياة أبدية لا نهاية لها .

والخلاصة — إن الدنيا شغلتهم بزخارفها العاجلة وشهواتها الباطلة ، فغرتهم وضرتهم ، وهى من شأنها أن تغرّ وتضر و تمرّ .

ثم ذكر عاقبة أمرهم فقال :

( فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ) أى فاليوم نعاملهم معاملة الشىء

المنسى الذى لا يبحث عنه أحد ، كما جعلوا هذا اليوم منسيا ، والمراد من النسيان عدم إجابة دعائهم وتركهم فى النار .

( وما كانوا بآياتنا يجحدون ) أى وكما كانوا منكرين أن الآيات من عند الله إنكارا مستمرا ، ورفضوا ما جاءت به رسله ظلما وعلوا .

والخلاصة — فاليوم نتركهم فى العذاب كما تركوا العمل فى الدنيا للقاء الله يوم القيامة ، وكما كانوا بآيات الله وحججه التى احتج بها عليهم الأنبياء والرسل يجحدون ولا يصدقون بشىء منها .

---

وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ : قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ؟ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣) .

## تفسير المفردات

الكتاب هو القرآن الكريم ، والتفصيل جعل المسائل المراد بيانها مفصولا بعضها من بعض بما يزيل اشتباهها ، وينظرون أى ينتظرون ، وتأويله أى عاقبته ، والحق هو الأمر الثابت ، والخسران : الغبن ، وضل عنهم ، أى غاب عنهم .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر أحوال أهل الجنة وأهل النار وأهل الأعراف وذكر الحوار الذى كان بين هذه الفرق الثلاثة على وجه يحمل الناظر فيها على الحذر والاحتراس والتأمل

فى العواقب لعله يرعوى عن غيه ويهتدى إلى سبيل رشده ، عقب ذلك بذكر حال الكتاب الكريم وعظيم فضله وجليل منفعته ، وأنه حجة الله على البشر كافة ، وأنه أزاح به علل الكفار وأبطل معاذيرهم ، ثم بذكر حال المكذبين وما يكون منهم يوم القيامة من الندم والحسرة وتمنى العودة إلى الدنيا لإصلاح أعمالهم .

## الإيضاح

( ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ) أى ولقد جئنا هؤلاء القوم بكتاب كامل البيان وهو القرآن ، فصلنا آياته تفصيلا على علم منا بما يحتاج إليه المكلفون من العلم والعمل ، تزكية لنفوسهم وتطهيرا لقلوبهم ، وجعلناه سبب سعادتهم فى معاشهم ومعادهم ، وهدى ورحمة لمن يؤمن به إيمانا يبعثه على العمل بما أمر به ، والانتهاء عما نهى عنه .

انظر إليه تجده قد أوضح أصول الدين العامة بما لا يطلب معه زيادة لمستزيد ، فنعى على المقلدين الأخذ بآراء من تقدمهم من آبائهم ورؤسائهم دون بحث ولا تمحيص فى مثل قوله « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ » . وكرر القول ببطلان التقليد وضلال المقلدين ، وحث على النظر والاستدلال والاعتماد على البرهان فى مثل قوله « قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » وبهذا كان الإسلام دين العقل والفطرة وينبوع الهدى والحكمة والرحمة .

وحين وجد الناس افتنوا فى الشرك ، وفرقوا بين توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية . فظنوا أن الإيمان بوحدة الرب خالق الكون — كاف فى الإيمان ولا يضر التوجه إلى غيره من المقربين بالدعاء وطلب مايعجز المرء عن نيله من طريق الأسباب ، ظنا منهم أن التوسل به إليه وشفاعته عنده مما يرضيه — أبطل هذه الشبهات . وأزال

هذه التعلات و بسط ذلك كل البسط . وأطنب فيه أيما إطناب . إلى نحو ذلك من مسائل تبصّر المرء فى دينه ودنياه . وتعرّفه مبدأه ومنتهاه .

( هل ينظرون إلا تأويله ) أى هل ينتظرون إلا عاقبة ما وعدوا به على ألسنة الرسل من الثواب والعقاب،أى ليس أمامهم شىء ينتظرونه فى أمره إلا وقوع تأويله وهو وقوع ما أخبر به من أمر الغيب الذى يقع فى المستقبل فى الدنيا ثم فى الآخرة مما وعد به المؤمنين من نصر وثواب ، والكافرين من خذلان وعقاب .

روى عن الربيع بن أنس أنه قال : لا يزال يقع من تأويله أمر حتى يتم تأويله يوم القيامة حين يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فيتم تأويله يومئذ .

( يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ) أى يأتى تأويله ونهايته يوم القيامة وتزول كل شبهة ، فيقول الذين نسوه من قبل أى تركوه وجعلوه كالشىء المنسى وأعرضوا عنه فلم يهتدوا به : قد جاءت رسل ربنا بالحق أى قد تبين أنهم قد جاءوا بما هو متحقق ثابت ، فتمارينا فيه وأعرضنا عنه حتى حق علينا الجزاء .

ثم ذكر حالهم فى ذلك اليوم وتلهفهم على النجاة فيتمنون إما شفاعة الشافعين أو رجوعهم إلى الدنيا ليصلحوا أعمالهم .

( فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل ) أى إنهم يتمنون الخلاص بكل وسيلة ممكنة ، إما بشفاعة الشفعاء وإما بالرجوع إلى الدنيا ليعملوا فيها غير ما كانوا يعملون فى حياتهم الأولى فيكونوا أهلا لمرضاة ربهم .

وإنما تمنوا الشفعاء وتساءلوا عنهم ، من حيث كان من أسس الشرك أن النجاة عند الله إنما تكون بوساطة الشفعاء ، وعند ما يستبين لهم الحق الذى جاءت به الرسل وهو أن النجاة إنما تكون بالإيمان الصحيح والعمل الصالح يتمنون لو يردون إلى الدنيا ليعملوا بما أمرهم به الرسل .

( قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ) أى هم قد غبنوا أنفسهم حظوظها وباعوا نعيم الآخرة الدائم بالخسيس من عرض الدنيا الزائل ، و يومئذ يغيب

عنهم ما كانوا يفترون من خبر الشفعاء ومقالاتهم التى كانو يقولونها كقولهم فى معبوداتهم ( هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ) .

وخلاصة ذلك — إنهم قد خسروا أنفسهم بتدنيسها بالشرك والمعاصى وعدم تزكيتها بالفضائل والأعمال الصالحة ، فخسروا حظوظهم فيها .

---

إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) .

## شرح المفردات

الرب: هوالسيد والمالك والمدبر والمربى ، والإله: هو المعبود الذى يدعى لكشف الضر أو جلب النفع و يتقرب إليه بالأقوال والأعمال التى يرجى أن ترضيه ، والله: اسم لخالق الخلق أجمعين ، ولا يثبت الموحدون ربا سواه ، وأكثر المشركين يقولون إنه أكبر الأرباب أو رئيسهم وأعظم الآلهة ، وكان مشركو العرب لا يثبتون ربا سواه ، وإنما يعبدون آلهة تقربهم إليه ، والسموات والأرض : يراد بهما العالم العلوى والعالم السفلى ، واليوم: الزمن الذى يمتاز عن غيره بما يحدث فيه كامتياز اليوم المعروف بما يحده من النور والظلام ، وامتياز أيام العرب بما كان يقع فيها من الحرب والخصام، وليست هذه الأيام الستة من أيام الأرض وهى التى مجموع ليلها ونهارها أربع وعشرون ساعة ، فإن هذه إنما وجدت بعد خلق هذه الأرض ، فكيف يعدّ خلقها بأيام منها، ولأن الله تعالى يقول « وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ » ويقول فى وصف يوم القيامة « فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » والعرش لغة : كل

شىء له سقف ، و يطلق على هودج للمرأة يشبه عريش الكرم ، وعلى سرير الملك وكرسيه فى مجلس الحكم والتدبير ، والاستواء لغة: استقامة الشىء واعتداله ، واستوى الملك على عرشه أى ملك ، وثل عرشه أى هلك ، وغشى الشىء الشىء : ستره وغطاه ، وأغشاه إياه : جعله يغشاه أى يغطيه و يستره ، ومنه إغشاء الليل النهار ، وحثيثا أى مسرعا ، من قولهم فرس حثيث السير أى سريعه ، بأمره أى بتدبيره وتصرفه، مسخرات أى مذللات خاضعات لتصرفه منقادات لمشيئته ؛ والخلق : التقدير والمراد هنا الإيجاد بقدر ؛ تبارك الله : تعاظمت بركاته ؛ والبركة : الخير الكثير الثابت .

## المعنى الجملى

علمت مما سلف من قبل أن الأسس التى عنى القرآن الكريم بشأنها هى التوحيد والنبوة والمعاد والقضاء والقدر ، و إثبات المعاد موقوف على إثبات الوحدانية لله والعلم الشامل والقدرة التامة .

ولما بسط القول فيما سلف فى أمر المعاد و بين فئات الناس فى ذلك اليوم ومايدور من حوار بين أصحاب النار وأصحاب الجنة — قفى على ذلك بذكر الخلق والتكوين و بيان مقدوراته تعالى وعظيم مصنوعاته لتكون دليلا على الربوبية والألوهية وأنه لامعبود سواه .

## الإيضاح

( إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ) يخاطب سبحانه الناس كافة بأن ربكم واحد ؛ وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ودبر أمورهما فيجب عليكم أن تعبدوه وحده ، إذ لا إله لكم غيره .

وقد جاء فى معنى الآية قوله فى سورة حم السجدة : « قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ

فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » وقوله فى سورة الأنبياء . « أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ، أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ؟ » .

وبالتأمل فى هذه الآيات نستخلص منها الأمور الآتية :

(١) إن المادة التى خلقت منها السموات والأرض كانت دخانا أى مثل الدخان.

(٢) إن هذه المادة الدخانية كانت واحدة ثم فتق الله رتقها أى التئامها بأن فصل بعضها من بعض ، فخلق منها هذه الأرض والسموات السبع .

(٣) إن خلق الأرض كان فى يومين ، وأن تكوّن اليابسة والجبال الرواسى فيها وأنواع النبات والحيوان كان فى يومين آخرين تتمة أيام أربع .

(٤) إن جميع الأحياء النباتية والحيوانية خلقت من الماء .

(٥) إن اليوم الأول من أيام خلق الأرض هو الزمن الذى كانت فيه كالدخان حين فتقت من رتق المادة العامة التى خلق منها كل شىء سواء أكان ذلك بواسطة أم بدونها .

(٦) إن اليوم الثانى هو الزمن الذى كانت فيه مائية بعد أن كانت بخارية أو دخانية .

(٧) إن اليوم الثالث هو الزمن الذى تكونت فيه اليابسة ونتأت منها الرواسى فتماسكت بها .

(٨) إن اليوم الرابع هو الزمن الذى ظهرت فيه أجناس الأحياء من الماء وهى النبات والحيوان .

(٩) إن السماء ـ العالم العلوى بالنسبة إلى أهل الأرض ـ قد سويت أجرامها من مادتها الدخانية فى يومين آخرين أى زمنين شبيهين بالزمنين اللذين خلق فيهما جرم الأرض .

وما استنبط من هذه الآيات يوافق ما أقره علماء الفلك فى العصر الحديث، فقد قالوا: إن المادة التى خلقت منها الأجرام السماوية وخلقت منها الأرض كانت سديما، وكانت واحدة رتقا ثم انفصل بعضها من بعض، وكانت مؤلفة من أجزاء دقيقة متحركة تجمّع بعضها إلى بعض بمقتضى قانون الجاذبية فتكوّن منها كرة عظيمة تدور على محورها واشتعلت من شدة الحركة فكانت ضياء ونورا تصحبه حرارة شديدة ، وهذه الكرة العظيمة فى عالمنا هى التى نسميها بالشمس والكواكب الدرارى التابعة لها فيما نرى ونشاهد ومنها أرضنا ، انفتقت من رتقها وانفصلت من جرمها وكانت مشتعلة مثلها وتدور على محاورها .

ثم إن الأرض تحولت من طور الغازية المشتعلة إلى طور المائية بنظام مقدر فى أزمنة طويلة ، إذ كان الأوكسجين والايدروجين وهما العنصران اللذان يتكون منهما الماء يرتفعان فى الجو لخفتهما فيبردان فيكونان بخارا فماء وما زال أمرها كذلك حتى غلب عليها طور المائية .

ثم تكونت اليابسة فى هذا الماء بسبب حركة أجزاء المادة وتجمع بعضها مع بعض بنسب ومقادير مختلفة ، ثم تولدت فيها المعادن على أنواع شتى ، وما زالت تبرد قشرتها الظاهرة وتجف شيئا فشيئا حتى صلحت لتولد النبات والحيوان فوجدت فيها الأحياء النباتية ثم الحيوانية .

ولا شك أن هذه الأقوال إن صحت كانت بيانا لما أجمل فى الكتاب الكريم وإن لم تصح فالقرآن لا يناقض شيئا منها ، ولكنها أقرب النظريات إلى سنن الكون وصفة عناصره البسيطة وحركتها ، وتعتبر تفصيلا لخلق العالم أطوارا بسنن ثابتة وتقدير منظم .

وقد أرشد الكتاب الكريم إلى مثل هذه الحقائق فى نحو قوله : « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » وقوله حكاية عن رسوله نوح صلى الله عليه وسلم مخاطبا قومه : « مَالَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ؟ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا . وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ؟ ».

فهذه الحقائق العلمية التى بينها القرآن ولم يكن أحد من المخاطبين فى عصر التنزيل يعرفها — من أكبر الأدلة على إعجازه وأنه من كلام العليم الخبير بكل شىء لا من كلام البشر .

وهذا النظام والتدريج فى الخلق من الدلائل على الإرادة والاختيار والحكمة ووحدانية الخالق ، فإن ما لا نظام فيه قد يظن أن وجوده أمر اتفاقى أو من فعل الكثير لا من فعل الواحد ، فإنك ترى الفرق واضحا بين كومة من الحصى تراها فى الصحراء و بين حصن شيد فيه جميع العُدد والآلات المعدة للقتال .

وما ورد فى الأخبار مما يدل على أن هذه الأيام الستة هى من أيام دنيانا كحديث أحمد ومسلم عن أبى هريرة قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى فقال : « خلق الله عز وجل التربة يوم السبت وخلق الجبال فيها يوم الأحد وخلق الشجر فيها يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الرواسى يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق فى آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل » فهو من الإسرائيليات التى لم يصح فيها حديث مرفوع — إلى أن هذا الحديث مردود من جهة متنه لمخالفته لنص كتاب الله ، ومن جهة سنده لأنه مروى عن حجاج بن محمد الأعور عن ابن جريج وقد اختلط عقله فى آخر عمره ، ومن ثم قال الحافظ ابن كثير بعد أن أورد الحديث فى تفسيره : وفيه استيعاب الأيام السبعة والله تعالى قال : « فى ستة أيام » ولهذا تكلم البخارى

وغير واحد من الحفاظ فيه وجعلوه من رواية أبى هريرة عن كعب الأحبار وليس مرفوعا اهـ .

( ثم استوى على العرش ) أى إنه تعالى قد استوى على عرشه بعد تكوين هذا الملك يدبر أمره ويصرف نظامه على حسب تقديره الذى اقتضته حكمته .

وفى معنى الآية قوله فى سورة يونس : « إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » .

واستواؤه تعالى على العرش : هو استقامة أمر السموات والأرض وانفراده بتدبيرهما والإيمان بذلك غير موقوف على معرفة حقيقة ذلك التدبير ولا معرفة صفته ولا كيف يكون ، فالصحابة رضوان الله عليهم والأئمة من بعدهم لم يشتبه أحد منهم فيه ، وقد أثر عن ربيعة شيخ الإمام مالك أنه سئل عن قوله : « اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ » كيف استوى ؟ فقال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التصديق .

وقال الحافظ ابن كثير : مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعى والثورى والليث ابن سعد والشافعى وأحمد و إسحق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديما وحديثا إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه . وقال نعيم بن حماد شيخ البخارى : من شبه الله بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله ــ تشبيه، فمن أثبت ماوردت به الآثار الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذى يليق بجلال الله ونفى عن الله النقائص فقد سلك سبيل الهدى اهـ .

( يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ) أى إنه تعالى جعل الليل وهو الظلمة يغشى النهار وهو ضوء الشمس على الأرض أى يتبعه ويغلب على المكان الذى كان فيه

ويستره حال كون الطلب حثيثا أى بسرعة ، والمراد أنه يعقبه سريعا كالطالب له لا يفصل بينهما شىء .

ويظهر ذلك الطلب السريع أتم الظهور بما أثبته العلم حديثا من كروية الأرض وأنها تدور على محورها حول الشمس ، فيكون نصفها مضيئا بنورها دائما ونصفها الآخر مظلما دائما ، وقد قال بهذا القول كثير من علماء الإسلام كالغزالى والرازى وابن تيمية وابن القيم وغيرهم .

وهذه الجملة كالدليل على ما قبلها ، فإنه بعد أن أخبر عباده باستوائه على العرش وتدبيره لجميع المخلوقات — أراهم ذلك عيانا فيما يشاهدونه منها ليضم العيان إلى الخبر وتزول الشبه — إلى مافى تعاقب الليل والنهار من المنافع العظيمة والفوائد الجليلة ، إذ بتعاقبهما يتم أمر الحياة وتكمل المنفعة والمصلحة .

( والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ) أى وخلق هذه الأشياء حال كونها مذللات خاضعات لتصرفه منقادات لحكمه .

( ألا له الخلق والأمر ) أى ألا إن لله الخلق ، فهو الخالق المالك لذوات المخلوقات وله فيها الأمر أى التصرف والتدبير ، إذ هو المالك لها لا شريك له فى ملكه .

ومن هذا التدبير ما سخر له الملائكة من نظام العالم وتنفيذ سننه فى خلقه ، كما جاء فى قوله : « فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً » ومن ذلك الوحى الذى ينزل به الملائكة على الرسل كما جاء فى قوله : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ » .

وفى معنى الآية قوله : « إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ » وقوله : « فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ » وقوله : « لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ » وجاءت هذه الجملة توكيدا لما قبلها لبيان أنه هو الذى خلق السموات والأرض وهو الذى دبرها وصرّفهما على حسب إرادته .

( تبارك الله رب العالمين ) أى تعالى الله بوحدانيته وألوهيته ، وتعظم بالتفرد بربوبيته ، وأن كل مافى هذا العالم من الخيرات الكثيرة والنعم العظيمة فهو منه ، فيجب على عباده أن يشكروه عليها ويعبدوه دون غيره مما عبدوه معه وليس له من الخلق ولا من الأمر شىء .

---

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ، إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) .

## شرح المفردات

التضرع : التذلل ، وهو إظهار ذل النفس من قولهم ضرَع فلان لفلان وتضرع له : إذا أظهر الذل فى معرض السؤال ، والخفية : ضد العلانية من أخفيت الشىء أى سترته ، والاعتداء : تجاوز الحدود ، ومحبة الله للعمل : ثوابه عليه ، وللعامل رضاه عنه .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه الأدلة على توحيد الربوبية — قفى على ذلك بالأمر بتوحيد الإلهية بإفراده تعالى بالعبادة ، وروحها ومخها الدعاء والتضرع له .

## الإيضاح

( ادعوا ربكم تضرعا وخفية ) أى ادعوا ربكم متولى أموركم حال كونكم متضرعين مبتهلين إليه مخفين دعاءكم .

وفى هذا إيماء إلى أن الدعاء فى الخفية إن لم يكن واجبا فهو مندوب على الأقل ، ويدل على ذلك وجوه :

(١) إنه تعالى أثنى على زكريا فقال : « إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا » أى إنه أخفاه عن العباد وأخلصه لله وانقطع به إليه .

(٢) روى أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيها الناس أَرْبِعُوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعاً قريبا وهو معكم » رواه مسلم .

(٣) روى أنه عليه السلام قال : « دعوة فى السر تعدل سبعين دعوة فى العلانية » وقال : « خير الذكر الخفى وخير الرزق ما يكفى » .

(٤) روى عن الحسن البصرى أنه قال : إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة فى بيته وعنده الزَّوْر وما يشعرون به ، ولقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه فى السر فيكون علانية أبدا ، ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم ، وذلك أن الله تعالى يقول : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية » اهـ .

(٥) إن النفس شديدة الرغبة فى الرياء والسمعة ، فإذا رفع صوته بالدعاء امتزج الرياء به ، فلا يبقى فيه فائدة البتة ، ومن ثم كان الأولى الإخفاء ليبقى مصونا عن الرياء .

وفصل بعض العلماء فقال : إن التضرع بالجهر المعتدل يحسن فى حال الخلوة والأمن من رؤية الناس للداعى ومن سماعهم لصوته ، فلا جهره يؤذيهم ، ولا الفكر فيهم يشغله عن التوجه إلى الرب وحده ، أو يفسد عليه دعاءه بحب الرياء والسمعة ، ويحسن الإسرار فى حال اجتماع الناس فى المساجد والمشاعر وغيرها إلا ما ورد فيه رفع الصوت من الجميع كالتلبية فى الحج وتكبير العيدين .

وإذ كان الليل سترا ولباسا شرع فيه الجهر فى قراءة الصلاة - إلى أنه يطرد الوسواس، ويقاوم فتور النعاس، ويعين على تدبر القرآن، وبكاء الخشوع للرحمن لدى المتهجدين فى خلواتهم .

(إنه لا يحب المعتدين) أى المتجاوزين ما أمروا به ، ونحو الآية قوله : « تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .

وللاعتداء فى الدعاء مظاهر شتى .

(١) اعتداء خاص بالألفاظ كالمبالغة فى رفع الصوت والتكلف فى صيغ الدعاء .

(٢) اعتداء خاص بالمعنى وهو طلب غير المشروع من وسائل المعاصى ومقاصدها كضرر العباد وطلب إبطال سنن الله فى الخلق ، أو تبديلها كطلب النصر على الأعداء مع ترك وسائله كأنواع السلاح والعتاد ، وطلب الغنى بلا كسب ،وطلب المغفرة مع الإصرار على الذنب مع أن الله يقول « فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً. وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً » .

(٣) اعتداء بالتوجه فيه إلى غير الله ليشفع له عنده ، وهذا شر أنواع الاعتداء كما قال « فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً » ومن طلب ذلك من غير الله فقد اتخذه إلها ، لأن الإله هو المعبود كما روى أحمد عن النعمان بن بشير أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « الدعاء هو العبادة » وروى الترمذى عن أنس مرفوعا « الدعاء مخ العبادة » وروى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سلوا الله لى الوسيلة ، قالوا وما الوسيلة ؟ قال : القرب من الله عز وجل ، ثم قرأ « يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ » وابتغاء ذلك يكون بدعائه وعبادته بما شرعه الله على لسان رسوله دون غيره .

وقد جاءت آيات كثيرة فى الإنكار على المشركين دعاء غير الله وكونه عبادة له وشركا بالله ، ولكن مدعى العلم الذين يتقولون على الله : يقولون لا بأس بدعاء

الأولياء والصالحين عند قبورهم والتضرع والخشوع لهم ، ويكون توسلا بهم إلى الله ليقربوهم منه بشفاعتهم ، لا عبادة لهم .

وقد علمت أن التوسل إنما هو التقرب إلى الله بما يرتضيه و بما شرعه من عبادته دون غيرها ، وآيات الكتاب الكريم صريحة فى ذلك .

نعم إن طلب الدعاء من المؤمنين مشروع من الأحياء لامن الأموات ، ويسمى ذلك توسلا لأنه قد شرعه الله كما توسل عمر والصحابة بالعباس بصلاة الاستسقاء وما بعدها من الدعاء .

وما ذم الله المشركين إلا لأنهم أشركوا مع الله غيره فى الدعاء ، وهم كانوا يؤمنون بالله و بعضهم كان يؤمن باليوم الآخر ، ولكن طرأ عليهم الشرك الذى أحبط أعمالهم ، وهكذا يحبط إيمان من أشرك من المسلمين بدعاء غير الله .

(ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها) أى ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاح الله لها بما خلق فيها من المنافع وما هدى الناس إليه من استغلالها والانتفاع بتسخيرها لهم وامتنانه بذلك فى مثل قوله « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » .

وهذا الإفساد شامل لإفساد النفوس بالقتل وقطع الأعضاء ، و إفساد الأموال بالغصب والسرقة ، و إفساد الأديان بالكفر والمعاصى ، و إفساد الأنساب بالإقدام على الزنا ، و إفساد العقول بشرب المسكر ونحوه .

والخلاصة — إن الأفساد شامل لإفساد العقول والعقائد والآداب الشخصية والاجتماعية والمعايش والمرافق من زراعة وصناعة وتجارة ووسائل تعاون بين الناس .

و إصلاح الله تعالى لحال البشر كان بهداية الدين و إرسال الرسل ، وتم ذلك ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين الذى كان رحمة للعالمين ، فبه أصلحت عقائد البشر ، وهذبت أخلاقهم وآدابهم بما جمع لهم فيها من مصالح الروح والجسد ، وما شرع لهم

من التعاون والتراحم ، وبما حفظ لهم من العدل والمساواة ، وبما شرع لهم من الشورى المقيدة بقاعدة درء المفاسد وحفظ المصالح ، وبذا امتاز دينهم عن بقية الأديان .

انظر إلى الأمم ذوات الحضارة والمدنية ترها أصلحت كل شىء من معدن ونبات وحيوان ، ولكنها عجزت عن إصلاح نفس الإنسان ، ومن ثم تحول كل ما هدوا إليه من وسائل العمران إلى إفساد نوع الإنسان ، وتعادت الشعوب وتنازعت على الملك والسلطان ، وأباحت الكفر والعصيان وبذل الثروة فى سبيل التنكيل بالخصوم والجناية على الأعداء ولو بالجناية على أنفسهم ، وما الحروب القائمة فى مشارق الأرض ومغاربها بين الدول الكبرى والتى أكلت الحرث والنسل وأزهقت أرواح الملايين من الناس بين حين وآخر إلا شاهد صدق على ما نقول .

وبعد أن بين فى الآية الأولى شرط الدعاء أعاد الأمر به إيذانا بأن من لا يعرف أنه محتاج إلى رحمة ربه مفتقر إليها ، ولايدعوا ربه تضرعا وخفية ولايخاف من عقابه ولا يطمع فى غفرانه يكون أقرب إلى الإفساد منه إلى الإصلاح فقال :

( وادعوه خوفا وطمعا ) الخوف توقع مكروه يحصل بعدُ ، والطمع توقع محبوب يحصل كذلك أى ادعوه خائفين من عقابه على مخالفتكم لشرعه المصلح لأنفسكم وأجسامكم ، طامعين فى رحمته وإحسانه فى دنياكم وآخرتكم .

ودعاء المولى حين الشعور بالعجز والافتقار إليه مما يقوى الأمل بالإجابة ويحول بينها وبين اليأس إذا تقطعت الأسباب وجهلت وسائل النجاح .

والدعاء مخ العبادة ولبها ، وإجابته مرجوة متى استكملت شرائطها وآدابها ، فإن لم تكن بإعطاء الداعى ما طلبه فربما كانت بما يعلم الله أنه خير له منه .

ثم بين فائدة الدعاء وعلّل سبب طلبه فقال :

( إن رحمة الله قريب من المحسنين ) أى إن رحمته تعالى قريبة من المحسنين أعمالهم ، لأن الجزاء من جنس العمل كما قال «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلاَّ الْإِحْسَانُ» .

فمن أحسن فى عبادته نال حسن الثواب ، ومن أحسن فى الدعاء أعطى خيرا مما طلبه ، أو مثل ماطلبه .

وقد طلب الله الإحسان فى كل شىء يهدى إليه دين الفطرة ، وحرم الإساءة فى كل شىء وجعل جزاءها من جنسها كما قال « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله كتب الإحسان على كل شىء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة ، وليحدّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته » رواه مسلم . ومن هذا تعلم أنه طلب الإحسان إلى الحيوان والرفق به حين ذبحه حتى لا يتعذب ، كما حرم أكل الموقوذة وهى التى تضرب بغير محدد حتى تنحل قواها وتموت .

وطلب الإحسان فى قتال الأعداء ، لأنه فى حكم الضرورات التى تقدر بقدرها ويتقى ما يمكن الاستغناء عنه كما قال « فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » .

فقد طلب إلينا فى هذه الآية أن نضرب رقاب الأعداء حين قتالهم ، لأنه أسرع إلى قتلهم وأبعد عن تعذيبهم بمثل ضرب الرءوس وتقطيع الأعضاء ، حتى إذا ظهر لنا عليهم الغلب بالإثخان فيهم أمرنا بترك القتل وأن نعمد إلى الأسر و بعد ذلك إما أن نمن على الأسرى بالعتق ، أو نفاديهم بمن أسر منا .

---

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ

الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالَّذِى خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا ، كَذٰلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨) .

## شرح المفردات

الريح: الهواء المتحرك ، والرياح عند العرب أربع على حسب مهابها من الجهات الأربع : الشمال والجنوب، وسميا كذلك باسم الجهة التى يهبان منها والصَّبا أوالقبول ، وهى الشرقية وقد ينسبونها إلى نجد كما ينسبون الجنوب إلى اليمن والشمال إلى الشام والدَّبور ، وهى الغربية . والريح التى تنحرف عن الجهات الأصلية فتكون بين اثنتين منها تسمى النكباء .

قال الراغب : كل موضع ذكر الله فيه إرسال الريح بلفظ الواحد كان للعذاب وكل موضع ذكر فيه بلفظ الجمع كان للرحمة ، وفى الخبر « إنه صلى الله عليه وسلم كان يجثو على ركبتيه حين هبوب الرياح ويقول: اللهم اجعلها لنا رياحا ولاتجعلها ريحا ، اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك » وبشْرا : مخفف بُشُرًا واحدها بشير : كعُدُر جمع غدير ، والرحمة : هنا المطر ، وأقلت : رفعت ؛ قال فى المصباح : كل شىء حملته فقد أقللته ، والسحاب: الغيم واحده سحابة ، والثقال منه: المشبعة ببخار الماء ، وسقناه: سيرناه ، والبلد والبلدة : الموضع من الأرض عامرا كان أو خلاء ، وبلد ميت : أرض لا نبات فيها ولامرعى ، والثمرات واحدها ثمرة ، والثمرة واحدة الثمر: وهو الحمل الذى تخرجه الشجرة سواء أكل أولا، فيقال ثمر الأراك وثمر النخل والعنب ، والنكد كل شىء خرج إلى طالبه بتعسر يقال رجل نكد ( بفتح الكاف وكسرها ) وناقة نكداء : خفيفة الدر صعبة الحلب ، والتصريف : تبديل الشىء من حال إلى حال ، ومنه تصريف الرياح .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه تفرده بالملك والملكوت وتصرفه فى العالم العلوى والسفلى وتدبيره الأمر وحده ، وطلب إلينا أن ندعوه متضرعين خفية وجهرا ، ونهانا عن الإفساد فى الأرض بعد إصلاحها ، وأبان لنا أن رحمته قريب من المحسنين — قفى على ذلك بذكر بعض ضروب من رحمته ، إذ أرسل إلينا الرياح وما فيها من منافع للناس، فبها ينزل المطر الذى هو مصدر الرزق وسبب حياة كل حى فى هذه الأرض ، وفى ذلك عظيم الدلالة على قدرته تعالى على البعث والنشور .

## الإيضاح

( وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت ) أى إن ربكم المدبر لأمور الخلق ، هو الذى يرسل الرياح بين يدى رحمته : أى بين الأمطار وأمامها حال كونها مبشرات بها، فينشئ بها سحابا ثقالا لكثرة مافيها من الماء ، حتى إذا أقلتها ورفعتها إلى الهواء ساقها لإحياء بلد ميت قد عفت مزارعه ، ودرست مشاربه ، وأجدب أهله .

ونحو الآية قوله : « وَاللهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ » .

( فأنزلنا به الماء ) أى فأنزلنا بالسحاب الماء ، إذ قد ثبت أنه حينما يسخن الهواء القريب من سطوح البحار وغيرها بتأثير الحرارة ، يرتفع فى الجو ويبرد لوصوله إلى منطقة باردة ، أو لامتزاجه بتيار من الهواء البارد ، فإذا برد تكاثف منه بخار الماء وتكوّن السحاب ، فالسحاب ناشئ من تكاثف بخار الماء من الهواء فى الطبقات العالية من الجو ، وهو لايكون ثابتا فى مكان ، بل يسير فى اتجاه أفقى مدفوعا بقوة الريح ،

ويتراوح بعده عن الأرض بين ميل وعشرة أميال ، ويكون معتما مُشْبَعا بالماء إذا كان قريبا من سطح الأرض ، وهو الذى ينشأ عنه المطر لتجمع قطيرات الماء التى فيه بعضها مع بعض بتأثير البرودة ، فتتكون قطيرات كبيرة تسقط من خلاله نحو الأرض لثقلها على حسب سنة الله فى جاذبية الثقل كما قال تعالى فى سورة الروم : « اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ ـ المطر ـ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ » وفى سورة النور : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي ـ يسوق ـ سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً ـ مجتمعا ـ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ » والمراد بالسماء السحاب ، إذ هى لغة : كل ماعلا الإنسان وأظله .

وقد أثبت العلم ودلت المشاهدة أن سكان الجبال الشاهقة يبلغون فى العلو حذاء السحاب الممطر أو يتجاوزونه إلى ما فوقه فيكون دونهم كما شاهد ذلك بعض النازلين فى بعض الفنادق فى جنيف بسويسرا .

( فأخرجنا به من كل الثمرات ) أى فأخرجنا بالماء أنواع الثمار على اختلاف طعومها وألوانها وروائحها ، فتخرج كل أرض أنواعا مختلفة منها تدل على قدرة الله وعلمه ورحمته وفضله كما قال: « وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ، وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .

وبعد أن ذكرهم بهذه الآيات قفى على ذلك بما يزيل إنكارهم للبعث فقال :

( كذلك نخرج الموتى ) أى ومثل هـذا الإخراج لأنواع النبات من الأرض الميتة بإحيائها بالماء نخرج الموتى من الناس وغيرهم ، إذ القادر على هذا قادر على ذلك .

(لعلكم تذكرون) هذا الشبه فيزول استبعادكم للبعث بنحو قولكم « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ » وقولكم « أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ » وقولكم « أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ » .

فأمثال هذه المقالات الدالة على إنكار خروج الحى من الميت تزول إذا أنتم تذكرتم خروج النبات الحى من الأرض الميتة ، إذ لا فارق بين حياة النبات وحياة الحيوان ، فكل منهما خاضع لقدرة الإله القادر على كل شىء .

والحياة فى عرف المخاطبين كانت تعرف بالتغذى والنمو فى النبات والحس والحركة فى الحيوان .

وما يقوله علماء الطبيعة الآن من أن الحى لا يولد إلا من حى سواء فى ذلك الحيوان والنبات ، فالنبات الذى يخرج فى الأرض القفراء بعد سقيها بالماء لابد أن تكون له بذور فيها حياة كامنة لا تظهر إلا بالماء — فمثل هذه الحياة لم يكن معروفا عند واضعى اللغة ، على أنه لا ينفى صحة خروج النبات الحى من الأرض الميتة ، إذ لولا تغذى البذور والجذور بمواد الأرض الميتة بسبب الماء لما نبتت .

والقرآن الكريم قد حدثنا بأن الأرض تفنى بتفرق مادتها ثم يعيدها الله كما بدأها فقال « إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا . وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا » فهذه الرجة هى التى سميت فى الآيات الأخرى بالقارعة والصاخة إذ ربما يقرعها كوكب ويصطدم بها فتتفتت جبالها وتكون كالهباء المتفرق فى الجو المسمى بالسديم .

## إعادة الموتى

جاء فى الكتاب الكريم قوله « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » وقوله : « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ » وقوله « قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » .

فأثبت فى هؤلاء الآيات الإعادة وشبهها بالبدء ، وهو تشبيه فى جملة ذلك لا فى تفصيله ، فإنه كما خلق جسد الإنسان الأول خلقا ذاتيا مبتدأ ونفخ فيه الروح — يخلق أجسام أفراد الإنسان خلقا ذاتيا معادا ، ثم ينفخ فيها أرواحها التى كانت بها أناسىّ فى الحياة الدنيا ، فما الأجساد إلا كالسكن للأرواح .

وليس بالبعيد على خالق العالم كله أن يعيد أجساد ألوف الملايين دفعة واحدة ، ولا سيما بعد أن أثبت العلم أنه يمكن تحليل بعض المواد المؤلفة من عناصر مختلفة ، ثم إعادة تركيبها ،وقد كان لتقدم الإنسان فى العصر الحديث ومعرفته لكثير من ظواهر الكون أثر عظيم فى تعرفنا لكثير من أخبار عالم الغيب وسهولة إدراك العقول لها ، ومن ثم قال كثير من علماء العصر الحديث : ليس فى العالم شىء مستحيل .

ولا يراد بحشر الأجساد حشرها بأعيانها لأجل وقوع الجزاء عليها ، ألا ترى أن العلماء يقولون : إن الأجساد تتجدد فى قليل من السنين . ومع ذلك لا يعتقد أحد من القضاة أن العقاب يسقط عن الجانى بانحلال أجزاء بدنه التى زاول بها الجناية وتبدل غيرها بها ، فحقيقة الإنسان لا تتغير بهذا التبدل ، إذ ليس هذا إلا كتبدل الثياب ونحوها ، إذ المستحق للثواب والعقاب هو الروح ، لأن مبنى الطاعة والعصيان الإدراكات والإرادات والأفعال والحركات .

والخلاصة — إن الإنسان الحقيقى هو الذرة التى تحل فى القلب وفيها تحل الروح وتكسبها الحياة وتسرى منها إلى الهيكل الجسمانى ، فهذا الهيكل هو آلة قضاء أعمال تلك الذرة فى هذا الكون ، واكتساب العلوم والمعارف ، وهى مع الروح الحالّ فيها هما المخاطبان بالتكليف ، وهما المعادان والمنعمان والمعذبان إلى نحو ذلك .

وبعد أن ضرب الله إحياء البلاد بالمطر مثلا لبعث الموتى — ضرب اختلاف نتاج البلاد مثلا لما فى البشر من اختلاف الاستعداد لكل من الهدى والكفر والرشاد والغى فقال :

( والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا ) قوله

والذى خبث أى والبلد الذى خبث لا يخرج نباته إلا نكدا ، وأصل النكد هو العسر الممتنع من إعطاء الخير بخلا .

والمعنى — إن الأرض منها الطيبة الكريمة التربة التى يخرج نباتها بسهولة ويتمى بسرعة ويكون كثير الغلة طيب الثمرة ، ومنها الخبيثة التربة كالحرّة — الحجرية — والسبخة التى لا يخرج نباتها على قلته وخبثه إلا بعسر وصعوبة .

قال ابن عباس : هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر أى للبر والفاجر اه أى إنه تعالى شبههما بالأرض الخيرّة والأرض السبخة ، وشبه نزول القرآن بنزول المطر ، فالأرض الخيرّة يحصل فيها بنزول المطر أنواع الأزهار والثمار ، والأرض السبخة إن نزل عليها المطر لا تنبت من النبات إلا النذر القليل ، فكذلك الروح الطيب النقى من شوائب الجهل ورذائل الأخلاق إذا اتصل به نور القرآن ظهرت فيه أنواع الطاعات والأخلاق الحميدة ، والروح الخبيث الكدر وإن اتصل به نور القرآن لا يظهر فيه من المعارف وجميل الأخلاق إلا النذر القليل .

روى أحمد والشيخان والنسائى من حديث أبى موسى رضى الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير ، أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعُشْب الكثير ، وكان منها أجادب — التى لا تشرب ولا تنبت — أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقَوْا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى منها إنما هى قيعان — أرض مستوية — لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » وقد فسر النبى صلى الله عليه وسلم القسم الأول وهو الذى نفع وانتفع بالهادى والمهتدى ، وفسر القسم الثالث وهو الذى لم ينفع ولم ينتفع بالجاحد ، وسكت عن القسم الثانى وهو الذى نفع غيره بعلمه ولم ينتفع به هو ، لأن له أحوالا كثيرة ممنه المنافقون ومنه المفرّطون فى دينهم ، والمشاهدة تدل على أن الطيبى الأخلاق

يفعلون الخير والبر بلا تكلف ، وأن الخبيثين لا يفعلون الخير ولا يؤدون الواجب إلا نكدا بعد إلحاف أو إيذاء حين الطلب أو إدلاء إلى الحكام .

( كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون ) أى مثل ذلك التصريف البديع يردد الآيات الدالة على القدرة الباهرة ، ونكررها لقوم يشكرون نعمنا باستعمالها فيما تتم حكمتنا ، وبذا يستحقون منا المزيد ويكافئون بالثواب عليها .

وختم هذه الآية بالشكر ، إذ كان موضوعها الاهتداء بالعلم والعمل والإرشاد ، والآية التى قبلها بالتذكر لما كان موضوعها الاعتبار والاستدلال .

## قصص نوح عليه السلام

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَالَةٌ وَلٰكِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤) .

## شرح المفردات

اليوم هنا : يوم القيامة ، والملأ: أشراف القوم لأنهم يملئون العيون بهجة ورواء بتأنقهم فى زيهم وتجميل منظرهم ، والنصح : الإرشاد إلى المصلحة مع خلوص النية

من شوائب المكر ، والذكر : الموعظة ، وعلى رجل أى على لسانه ، منكم أى من جنسكم ، والفلك : السفينة ، وعمين واحدهم عم : وهو ذو العمى ، أو هو خاص بعمى القلب والبصيرة ، والأعمى : أعمى البصر كما قال زهير :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عمى

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر — عظمت آلاؤه — مبدأ الإنسان ومعاده وأن مرده إلى الله فى يوم تجازى فيه كل نفس بما كسبت — قفى على ذلك بذكر قصص الأنبياء مع أممهم وإعراضهم عن دعوتهم ، ليبين للرسول أن الإعراض عن قبول دعوة الأنبياء ليس ببدْع فى قومك ، بل سبق به أقوام كثيرون ، وفى ذلك تسلية له صلى الله عليه وسلم — إلى ما فيه من التنبيه إلى أن الله لا يهمل أمر المبطلين ، بل يمهلهم ، وتكون العاقبة للمتقين ، ومن العظة والاعتبار بما حل بمن قبلهم من النكال والوبال كما قال « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » .

## الإيضاح

( لقد أرسلنا نوحا إلى قومه ) أقسم ربنا جل ثناؤه المخاطبين بهذه الآية من أهل مكة ومن جاورهم من العرب بأنه سبحانه أرسل نوحا إلى قومه منذرا لهم بأسه ومخوفهم سخطه ، على عبادتهم غيره ، وقد كانوا ينكرون الرسالة والوحى ، إذ ليس عندهم من علوم الرسل والأمم شىء إلا ما يتلقونه من اليهود والنصارى فى بلاد العرب والشام .

ونوح أول رسول أرسله الله إلى قومه المشركين كما هو رأى كثير من المحققين كما ثبت فى حديث الشفاعة وغيره .

( فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ) أى فدعا من كفر منهم إلى

عبادة الله تعالى وحده ، إذ ليس لهم إله غيره يتوجهون إليه فى عبادتهم بدعاء يطلبون به ما لايقدرون عليه بكسبهم ، فربهم هو الخالق لكل شىء و بيده ملكوت كل شىء، وهو الإله الحق الذى يجب أن تتوجه إليه القلوب بالدعاء وغيره .

ثم ذكر السبب فى الأمر بعبادته وحده ، وترك أدنى شوائب الشرك ، مثبتا للبعث والجزاء فقال :

( إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ) أى إنى أخاف عليكم عذاب يوم شديد هوله وهو يوم البعث والجزاء إذا لم تمتثلوا ما أمرتكم به .

( قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين ) أى قال له أشراف قومه : إنا لنراك فى ضلال بين عن الحق بنهيك لنا عن عبادة آلهتنا وُدّ وسُواع و يغوث و يَعُوق ونسر وهم شفعاؤنا عند الله ووسيلتنا إليه ، فبركتهم يتقبل منا صالح أعمالنا ، و يعطينا سؤلنا ، لما كانوا عليه من الصلاح والتقوى ، ونحن لا نستطيع أن نوجه إليه دعواتنا دون وساطتهم ، لما نجترحه من السيئات التى تبعدنا عن حظيرة ذلك القدس الأعظم .

وخلاصة مقالهم — أنت فى غمرة من الضلال أحاطت بك ، فجعلتك لا تجد إلى الصواب سبيلا .

( قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين ) أى قال نوح مجيبا لهم : يا قوم لم آمركم بما أمرتكم به من توحيد الله و إخلاص الطاعة له دون الآلهة والأنداد خروجا منى عن محجة الحق ، وضلالا عن سبيل الرشاد ، ولكنى رسول من رب العالمين إليكم ، أهديكم باتباعى إلى مايوصلكم إلى السعادة فى دنياكم وآخرتكم ، وأنقذكم من الهلاك الأبدى بالشرك بالله والمعاصى المدنسة للأنفس والمفسدة للأرواح .

ومن رحمة ربكم بكم ألا يدعكم فى عمايتكم وشرككم الذى ابتدعتموه بجهلكم

حتى يبين لكم الحق من الباطل على يد رسول من لدنه يسلك بكم السبيل السوى الموصل إلى النجاة .

( أبلغكم رسالات ربى ) أى أرسلنى إليكم لأبلغكم ماطلب إلىّ تبليغه من التوحيد والإيمان وباليوم الآخر والوحى والرسالة والملائكة والجنة والنار والآداب والمواعظ والأحكام العامة من عبادات ومعاملات إلى نحو ذلك .

(وأنصح لكم) بتحذيركم عقاب الله على كفركم به وتكذيبكم لى وردكم نصحى .

روى مسلم وأبو داود والنسائى عن تميم الدارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الدين النصيحة ، قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

( وأعلم من الله مالا تعلمون ) أى وأنا فى هذا التبليغ وذلك النصح على علم من الله أوحاه إلىّ لاتعلمون منه شيئا ، كما أنى أعلم من أمر الله وشئونه ما لاتعلمون فى نظام هذا العالم وما ينتهى إليه ، كما أعلم ما بعده من أمر الآخرة والحساب والجزاء ـ فإذا نصحت لكم وأنذرتكم عاقبة شرككم من إنزال العذاب بكم فى الدنيا إذا جحدتم وعاندتم ، فإنما أنصح لكم عن علم يقينى لاتعلمونه .

( أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ) أى أكذبتم وعجبتم من أن جاءكم ذكر وموعظة من ربكم على لسان رجل منكم ، ليحذركم عاقبة كفركم ويعلمكم بما أعد لكم من العذاب على ذلك ولتتقوا بهذا الإنذار مايسخط ربكم عليكم بالشرك فى عبادته ، والإفساد فى أرضه ، وليعدّكم بالتقوى لرحمته التى ترجى لكل من أجاب الدعوة واتقى .

وفى قوله : على رجل منكم، بيان لشبهتهم على الرسالة وهى أن الرسول بشر مثلهم ، فكأنهم كانوا يرون أن الاشتراك فى البشرية والصفات العامة يقتضى التساوى فى جميع الخصائص والمزايا ويمنع الانفراد بشىء منها ، والمشاهدة أكبر برهان على بطلان هذه القضية ، فالتفاوت فى الغرائز والصفات الفاضلة والاختلاف فى القوى

العقلية والمعارف والأعمال الكسبية ـ جد عظيم فى البشر ، وليس فى الأنواع الأخرى ما يشبه الإنسان فى ذلك ـ إلى أنه لو فرض التساوى بينهم ، فهل هذا يمنع أن يختص الله بعض عباده بما هو فوق المعهود فى الغرائز والمكتسب بالتعلم ؟ كلا ، إنه تعالى قدير على ذلك ، وقد قضت به مشيئته ، ونفذت به قدرته .

( فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك ) أى فكذبه جمهورهم وأصرّوا على ذلك وخالفوا أمر ربهم ولجوا فى طغيانهم يعمهون ، فأنجيناه من الغرق والذين سلكهم معه فى الفلك من المؤمنين : « وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ » وقد جاءت القصة مفصلة فى سورة هود ، قيل كانت عدتهم ثلاث عشرة : نوح وبنوه الثلاثة سام وحام ويافث وأزواجهم وستة ممن كانوا آمنوا به .

( وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين ) أى وأغرقنا من كذب بآياتنا بالطوفان بسبب تكذيبهم ، وما كان ذلك التكذيب إلا لعمى بصائرهم الذى حال بينهم وبين الاعتبار بالآيات وفهمهم للدلائل الدالة على وحدانية الله وقدرته على إرسال الرسل وحكمته فى ذلك ، والثواب والعقاب فى يوم الجزاء ، يوم يحشر الناس لرب العالمين ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنهم من شدة العذاب حيارى .

## قصص هود عليه السلام

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلاَ تَتَّقُونَ ؟ (٦٥) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ

نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ؟ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ؟ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ، أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ؟ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٧١) فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) .

## شرح المفردات

الأخ هنا : الأخ فى النسب ، وتقول العرب فى أخوة الجنس يا أخا العرب ، والسفاهة: خفة العقل، والآلاء واحدها أَلًى: وهى النعمة، والرجس: العذاب، والغضب: الانتقام ، والمجادلة : المماراة والمخاصمة ، والسلطان : الحجة والدليل ، والدابر : الآخر ، ويراد به الاستئصال أى أهلكناهم جميعا .

## المعنى الجملى

أخرج ابن إسحق من طريق الكلبى قال : إن عادا كانوا أصحاب أوثان يعبدونها ـ اتخذوها على مثال ود وسواع ويغوث ونسر ، فاتخذوا صنما يقال له صمود وآخر يقال له الهتّار ، فبعث الله إليهم هودا وكان من قبيلة يقال لها الخلود ، وكان

من أوسطهم نسبا وأصبحهم وجها ، فدعاهم إلى عبادة الله وأمرهم أن يوحدوه ، وأن يكفوا عن ظلم الناس فأبوا ذلك وكذبوه : « وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ » .

وكانت منازلهم بالأحقاف ـ الرمل ـ فيما بين عُمَان إلى حضرموت باليمن ، وكانوا مع ذلك قد أفسدوا فى الأرض كلها وقهروا أهلها بفضل قوتهم التى آتاهم الله اه .

## الإيضاح

( و إلى عاد أخاهم هودا ) أى وأرسلنا إلى عاد أخاهم فى النسب هودا ، والحكمة فى كون رسول القوم منهم أن يُفهمهم و يفهم منهم ، وأن يكونوا أقرب إلى إجابة دعوتهم لمعرفتهم شمائله وأخلاقه .

( قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ) أى قال هود لهم : يا قوم أفردوا العبادة لله ولاتجعلوا معه إلها غيره .

( أفلا تتقون ) ربكم وتبتعدون عما يسخطه من الشرك والمعاصى لتنجوا من عقابه ؟ وجاء فى سورة هود : « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

وقد يكون قال لهم هذا وذاك فى وقت واحد ، أو يكون قد قال لهم هذا مرة وذاك أخرى .

(قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة) أى قال الملأ الذين جحدوا توحيد الله وأنكروا رسالة هود إليهم : إنا لنراك فى ضلال عن الحق والصواب بتركك ديننا وعبادة آلهتنا الذين اتخذت لهم الأمة الصور والتماثيل تخليدا لذكراهم والتقرب بشفاعتهم إلى ربنا وربهم .

ووصف الملأ هنا بالكفر دون ملأ قوم نوح ، لأن منهم من كان قد آمن .

( و إنا لنظنك من الكاذبين ) فى قيلك إنى رسول من رب العالمين ، وفى قولهم هذا إيماء إلى تكذيبهم كل رسول ، إذ هم قد عبروا عن أصحاب هذه الدعوى بالكاذبين وجعلوه واحدا منهم .

( قال يا قوم ليس بى سفاهة ولـكنى رسول من رب العالمين ) أى ليس بى أىُّ ضلالة عن الحق والصواب كما تدّعون ، ولـكنى رسول من رب العالمين أرسلنى إليكم ، لأبلغكم رسالات ربى وأؤديها إليكم ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، فلا يختار لها إلا من عرفوا برجحان العقل وحصافة الرأى وكمال الصدق .

ثم بين وظيفة الرسول وحاله عليه السلام فيما بلغ فقال :

( أبلغكم رسالات ربى وأنا لـكم ناصح أمين ) أى أبلغكم ما أرسلت به من التكاليف ، وإنى ناصح لـكم فيما أبلغكم إياه وأدعوكم إليه ، أمين فيما أبلغ عن الله ، فلا أكذب عليه فى وحيه إلىّ .

وفى إجابة هؤلاء الأنبياء لأقوامهم بتلك الإجابة الصادرة عن الحـكمة والإغضاء عما قالوا من وصفهم إياهم بالسفاهة والضلالة ـ أدب حسن وخلق عظيم وتعليم لعباده كيف يقابلون السفهاء ، وكيف يغضون عن قالة السوء التى تصدر عنهم .

( أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟ ) أى أكذّبتم وعجبتم أن أنزل ربكم وحيه بتذكيركم وعظتكم على ما أنتم عليه مقيمون من الضلالة على لسان رجل منكم لينذركم بأسه ويخوفكم عقابه ؟.

( واذكروا إذ جعلـكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة ) أى واذكروا فضل الله عليكم ونعمته ، إذ جعلـكم ورثة قوم نوح وزادكم بسطة فى خلق أبدانكم ( وقد كانوا طوال الأجسام أقوياء الأبدان ) واتقوا الله فى أنفسكم واحذروا أن يحل بكم من العذاب مثل ما حل بهم ، فيهلـكـكم ويبدل منكم غيركم ، سنته فيهم ، وقد جاء فى سورة هود والشعراء وفصلت مايدل على ما كان لهم من قوة وجبروت وبطش شديد .

( فاذكروا آلاء الله لعلـكم تفلحون ) أى فاذكروا نعم الله وفضله عليكم ، واشكروه على ذلك بإخلاص العبادة له وترك الإشراك به ، وهجر الأوثان والأصنام

لعلكم تفوزون بما أعده للشاكرين لنعمه ، الراجين للمزيد منها ، وتدركون الخلود والبقاء والنعيم الأبدى فى دار القرار .

ثم ذكر ماردوا به عليه فقال :

( قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ) يقال : جاء يعلم الناس كيف يحاربون ، وذهب يقيم قواعد العمران ، على معنى شرع يفعل ذلك .

والمعنى — أجئتنا لأجل أن نعبد الله وحده ، ونترك ما كان يعبد آباؤنا معه من الأولياء والشفعاء وهم الوسيلة عنده ، وهم الذين يقربوننا إليه زلفى ، وهل يقبل الله عبادتنا مع ذنوبنا إلا بهم ولأجلهم .

و بعد أن استنكروا التوحيد واحتجوا عليه بما لا يصلح عقلا ولا شرعا أن يكون حجة من تقليد الآباء والأجداد استعملوا الوعيد فقالوا .

( فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ) أى فجئنا بما تعدنا به من العذاب على ترك الإيمان بك ، والعمل بما جئت به من التوحيد ، و إخلاص العبادة لله وحده — إن كنت صادقا فى قولك ووعيدك .

فأجابهم هود على مقالتهم بقوله :

( قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ) أى قال هود لقومه : قد قضى عليكم ربكم مالك أمركم بعذاب وطرد من رحمته ، وقد كان عذابهم ريحا صرصرا ( ذات صوت شديد ) عاتية تنزع الناس من الأرض ثم ترميهم بها صرعى ( كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ) أى قد قلع من منابته ، وزال من أماكنه .

( أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم مانزل الله بها من سلطان ؟ ) أى أتخاصمونني فى أسماء وضعتموها أنتم وآباؤكم الذين قلدتموهم على غير علم ولاهدى منكم ولا منهم، لمسميات اتخذوها فاتخذتموها آلهة زاعمين أنها تقربكم إلى الله زلفى وتشفع عنده لكم ، ماأنزل الله من حجة ولا برهان يصدق زعمكم بأنه رضى أن تكون واسطة بينه

و بينكم ، وكيف وهو الواحد الأحد الذى يصمد إليه عباده فى العبادة ، وطلب مالم يمكنهم بالأسباب العادية .

والخلاصة — إنه هو الذى يتوجه إليه وحده ، ولا يشرك معه أحد من خلقه كما قال إبراهيم : « إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

وكل ما يتعلق بعبادة الله لا يعلم إلا بوحى منه ينزله على رسله ؟ إذ لا يعلم إلا من عباده المبلغين عنه .

( فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ) أى فانتظروا نزول العذاب الذى طلبتموه بقولكم ( فأتنا بما تعدنا ) إنى معكم من المنتظرين لنزوله بكم ، وفصل قضائه فينا وفيكم ، و إننى لموقن بذلك وأنتم مرتابون .

( فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ) أى فلما جاء أمرنا ووقع ما وقع — أنجينا هودا والذين آمنوا به و بما دعا إليه من توحيد الله وهجر الأوثان — برحمة عظيمة منا ، واستأصلنا دابر الذين جحدوا بآياتنا ولم نبق منهم أحدا بريح صرصر عاتية : « تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ » .

## قصص صالح عليه السلام

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ، هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا

وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ، فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ : أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ؟ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِى آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) .

## شرح المفردات

ثمود : قبيلة من العرب كانت مساكنهم الحِجْر بين الحجاز والشام إلى وادى القرى، سميت باسم جدهم ثمود بن عامر بن إرم بن سام بن نوح؛ وأخوّة صالح لهم: أخوة فى النسب كأخوة هود لقومه ، والبينة: المعجزة الظاهرة الدلالة ، واذكروا أى تذكروا ، وبوأكم فى الأرض أى أنزلكم فيها وجعلها مباءة لكم ، والأرض: أرض الحجر بين الحجاز والشام، والنحت : نجر الشىء الصلب، والعيث والعثى: الفساد ، استكبروا: عتوا وتكبروا ، وعقروا الناقة: نحروها ، وأصل العقر الجرح، وعقر الإبل: قطع قوائمها ، وكانوا يفعلون ذلك بها قبل نحرها لتموت فى مكانها ولا تنتقل ، وعتوا : تمردوا مستكبرين ، والعتوّ: التمرد ، والامتناع إما عن عجز وضعف، ومنه عتا الشيخ عتيا: إذا أسنّ وكبر ، وإما عن قوة كعتو الجبارين والمستكبرين ، ويقولون نخلة عاتية : إذا كانت عالية يمتنع جناها على من يريدها إلا بمشقة التسلق والصعود ، الرجفة : المرة من الرجف وهو الحركة والاضطراب ، يقال رجف البحر : إذا اضطربت أمواجه ، ورجفت

الأرض: زلزلت واهتزت ، ورجف القلب والفؤاد من الخوف، ودار الرجل: مايسكنها هو وأهله ، ويطلق على البلد وهو المراد هنا ، وجثم الناس : قعدوا لاحراك بهم ، قال أبو عبيدة : الجثوم للناس والطير كالبروك للإبل .

## الإيضاح

( و إلى ثمود أخاهم صالحا ) أى ولقد أرسلنا إلى بنى ثمود أخاهم صالحا .

( قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ) أى قال صالح لثمود : ياقوم اعبدوا الله وحده لاشريك له ، فما لكم من إله تعبدونه سواه .

( قد جاءتكم بينة من ربكم ) أى قد جاءتكم حجة و برهان على صدق ما أقول وحقيقة ما أدعو إليه من إخلاص التوحيد له و إفراده بالعبادة دون سواه .

وفى قوله : من ربكم ، إيماء إلى أنها ليست من فعله ، ولا مما ينالها كسبه ، وهكذا سائر مايؤيد به الله الرسل من خوارق العادات .

وهذه المقالة كانت لهم بعد نصحهم وتذكيرهم بنعم الله وتكذيبهم له كما جاء فى سورة هود من قوله : « هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا » إلى آخر الآيات .

( هذه ناقة الله لكم آية ) أضاف الناقة إلى الله تعظيما لشأنها ، ولأنها لم تأت بنتاج معتاد وأسباب معهودة ، ومن ثم كانت آية . وأى آية ؟.

و إنما استشهد صالح على صحة نبوته بالناقة ، لأنهم سألوه إياها آية دالة على صدق دعوته وصحة نبوته .

ثم ذكر ما يترتب على كونها آية أنه لاينبغى التعرض لها فقال :

( فذروها تأكل فى أرض الله ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ) أى إن الأرض أرض الله والناقة ناقة الله ، فاتركوها تأكل ما تأكل فى أرض ربها ، وليس لكم أن تحولوا بينها و بينها ، ولا تتعرضوا لها بسوء فى نفسها ولا فى أكلها ،

فإنكم إن فعلتم ذلك أخذكم عذاب أليم ، وقد وصف فى سورة هود بالعذاب القريب وهو أنه يقع بعد ثلاثة أيام من مسهم إياها بالسوء ، وكذلك كان ، وجاء فى سورة القمر : « وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ » .

وجاء تفسير هذا فى سورة الشعراء : « هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ » أى إن الماء الذى كانوا يشربون منه قسمة بينهم و بين الناقة ، إذ كان ماء قليلا ، فكانوا يشربونه يوما وتشرب هى يوما ، وقد روى عن ابن عباس أنهم كانوا يستعيضون عن الماء يوم شربها بلبنها .

ثم ذكرهم بنعم الله عليهم و بوجوب شكرها بعبادته تعالى وحده فقال :

( واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد و بوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا ) أى وتذكروا نعم الله عليكم و إحسانه إليكم ، إذ جعلكم خلفاء لعاد فى الحضارة والعمران والقوة والبأس ، وأنزلكم منازلهم تتخذون من سهولها قصورا زاهية ، ودورا عالية ، بما ألهمكم من حذق فى الصناعة ، فجعلكم تضربون اللبن وتحرقونه آجرا ( الطوب المحرق ) وتستعملون الجص وتجيدون هندسة البناء ودقة النجارة ، وتنحتون من الجبال بيوتا ، إذ علمكم صناعة النحت ، وآتاكم القوة والجلد .

روى أنهم كانوا يسكنون الجبال فى الشتاء لما فى البيوت المنحوتة من القوة ، فلا تؤثر فيها الأمطار والعواصف ، و يسكنون السهول فى باقى الفصول للزراعة والعمل.

( فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ) أى وتذكروا هذه النعم العظام ، واشكروها له بتوحيده وإفراده بالعبادة ، ولاتتصرفوا فيها تصرف كفران وجحود بفعل مالايرضى الله الذى خلقها لكم ، فما بالكم بالكفر والعثى فى الأرض بالفساد .

( قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم : أتعلمون

أن صالحا مرسل من ربه ؟ ) قد جرت سنة الله أن يكون الفقراء المستضعفون أسرع الناس إلى إجابة دعوة الأنبياء والرسل ، وإلى كل دعوة لإصلاح ، فإنه لا يثقل عليهم أن يكونوا تابعين لغيرهم ، وأن يكفر بها أكابر القوم وأغنياؤهم المترفون ، إذ يشق عليهم أن يكونوا مرءوسين لسواهم ، كما يصعب عليهم الامتناع عن الإسراف فى الشهوات ، والوقوف عند حدود الاعتدال .

وعلى هـذا السنن سار الملأ من قوم صالح إذ قالوا للمؤمنين منهم : أتعلمون أن صالحا رسول من عند الله ؟ ومرادهم بهذا التهكم والاستهزاء بهم .

( قالوا إنا بمـا أرسل به مؤمنون ) أى إنا بما أرسل به صالح من الحق والهدى مصدقون ومقرون بأنه من عند الله ، وأن الله أمر به ، وعن أمر الله دعانا صالح .

وفى جوابهم هذا دون أن يقولوا ـ نعم ، أو نعلم أنه مرسل منه ، أو إنا برسالته عالمون ـ إيماء إلى أنهم علموا بذلك علما يقينيا إذعانيا له السلطان على عقولهم وقلوبهم وما كل من يعلم شيئا يصل علمه إلى هـذه المرتبة ، بل من الناس من يعلم الشىء بالبرهان ، لـكنه يجحده و يحارب به وهو موقن به حسدا لأهله ، أو استكبارا عنه كما قال تعالى : « وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا » .

( قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون ) أى قال الذين استكبروا عن أمر الله وأمر رسوله صالح : إنا بالذى صدقتم به من نبوة صالح وإن الذى جاء به هو الحق ـ جاحدون منكرون لا نصدق به ولا نقر .

وإنمـا لم يقولوا إنا بالذى أرسل به صالح كافرون ـ لأن ذلك يتضمن إثبات الرسالة ، فلو قالوه لـكان شهادة منهم على أنفسهم بجحود الحق على علمهم به استكبارا وعنادا .

ثم ذكر مافعلوه مما يدل على كفرهم بآيات ربهم فقال :

( فعقروا الناقة ) أى فعقر أولئك المستكبرون الناقة ، ونسب الفعل إليهم جميعا والفاعل واحد منهم كما جاء فى سورة القمر : « فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ »

وجاء فى حديث البخارى مرفوعا «فانتدب لها رجل ذو عزة ومنعة فى قومه كأبى زمعة» لأنهم لما اتفقوا عليه ورضوا به صاروا كأنهم فعلوه جميعا .

وفى ذلك تهويل وتفظيع لأمرهم ، وأن أضراره ستصيبهم جميعا ، ومثل هذا من الأعمال ينسب إلى الأمة فى جملتها ، وتعاقب عليه جميعها كما قال : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » .

( وعتوا عن أمر ربهم ) أى وتمردوا وتجبروا عن اتباع الحق الذى بلغهم صالح إياه ، وهو ما سلف ذكره .

روى أحمد والحاكم عن جابر قال : « لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحِجْر قال ( لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح ، وكانت الناقة ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم ، وكانت تشرب يوما ويشربون لبنها يوما ، فعقروها فأخذتهم صيحة أخمد الله مَنْ تحت أديم السماء منهم إلا رجلا واحدا كان فى حرم الله — وهو أبو رغال — فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه )» .

( وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ) الوعد يكون فى الخير والشر أى قالوا له : ائتنا بما وعدتنا به من عذاب الله ونقمته ، إن كنت رسولا إلينا ، وتدعى أن وعيدك تبليغ عنه ، فالله ينصر رسله على أعدائه ، فعجل ذلك لنا .

( فأخذتهم الرجفة ) وفى سورة هود « فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ » وفى سورة حم السجدة « فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ » وفى سورة الذاريات « فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ » والمراد بالجميع الصاعقة ، فإن لنزولها صيحة شديدة القوة ترجف من هولها الأفئدة وتضطرب الأعصاب ، وربما اضطربت الأرض وتصدع ما فيها من بنيان .

وقد علم أن سبب حدوثها اتصال كهربائية الأرض بكهربائية الجو التى يحملها

السحاب ، فتحدث صوتا كالصوت الذى يحدث باشتعال قذائف المدافع ، وهذا الصوت هو المسمى بالرعد .

وتحدث الصاعقة تأثيرات عظيمة كصعق الناس والحيوان وهدم المبانى أو تصديعها و إحراق الشجر ونحو ذلك ، وقد هدى العلم إلى الطريق فى اتقاء أضرارها بالمبانى العظيمة بوضع ما يسمونه ( مانعة الصواعق ) .

وقد يجوز أن الله سبحانه جعل هلاكهم فى وقت ساق فيه السحاب المشبع بالكهرباء إلى أرضهم على حسب السنن المعروفة ، وقد يجوز أن الله قد خلق تلك الصاعقة لأجلهم على سبيل خرق العادة ، وأيهما كان قد وقع ، فقد صدق الله رسوله وحدث ما أنذرهم به.

( فأصبحوا فى دارهم جاثمين ) أى لم يلبثوا أن سقطوا مصعوقين جثثا هامدة حين نزلت بهم الصيحة فى أرضهم .

( فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ) أى قال لهم صالح بعد أن جرى عليهم ما جرى مغتما متحسرا كما يقول المتحسر على من مات جانيا على حياته بالتفانى فى شهواته : ألم أنهك عما يوردك ريب المنون . ألم أحذرك تلك العاقبة الوخيمة التى لم تتداركها قبل وقوعها ، فماذا أفعل ، إذ فضلت لذة الساعات والأيام على عيش هنىء يدوم عشرات الأعوام .

وروى مثل هذا مرفوعا عن النبى صلى الله عليه وسلم من ندائه بعض قتلى قريش ببدر بعد دفنهم فى القَلِيب ( البئر غير المبنية ) .

« يا فلان بن فلان ، وفلان بن فلان : أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله فإنا قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ » قال راوى الحديث أبو طلحة الأنصارى : قال عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ؟

أو فيها — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » رواه البخارى وغيره عن طريق قتادة عن أبى طلحة الأنصارى رضى الله عنه ، ثم قال : قال قتادة أحياهم الله حتى أسمعهم قوله صلى الله عليه وسلم توبيخا وتصغيرا ونقمة وحسرة وندما اه . قال العلماء ومثل هذا مما اختص به الأنبياء . وبهذا الحديث ونحوه مما ورد من حياة الأنبياء والشهداء فى البرزخ ، يستدل زوار الأضرحة والقبور الذين يدعون أصحابها لقضاء حاجاتهم ويقولون : إن كل من دعا ميتا من الصالحين يسمع منه ويقضى حاجته ، قياسا على ذلك ، مع علمهم بأن الأمور الغيبية يقتصر فيها على ماسمع عن الأنبياء ولا يدخلها باب القياس .

## قصص لوط عليه السلام

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤) .

## شرح المفردات

لوط: هو لوط بن حاران ابن أخى إبراهيم عليه السلام ولد فى (أورالكلدانيين) فى الطرف الشرقى من جنوب العراق وكانت تسمى أرض بابل ، وكان قد سافر بعد موت والده مع عمه إبراهيم صلى الله عليه وسلم إلى مابين النهرين وكان يسمى جزيرة

قورا ، وهناك كانت مملكة أشور ، ثم أسكنه إبراهيم شرق الأردن لجودة مراعيها ، وكان فى ذلك المكان المسمى بعمق السديم بقرب البحر الميت أو بحر لوط ، قرى خمس ، سكن لوط فى إحداها المسماة بسدوم ، وكانت تعمل الخبائث ، ولا يوجد الآن ما يدل على موضعها بالتحديد ، و بعض الناس يقول : إن البحر قد غمرها ولا دليل لهم على ذلك .

## الإيضاح

( ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ؟ ) أى واذكر لوطا حين قال لقومه موبخا لهم : أتفعلون تلك الفعلة التى بلغت الغاية فى القبح والفحش .

( ما سبقكم بها من أحد من العالمين ) أى ما عملها أحد قبلكم فى أى زمان ، بل هى من مبتدعاتكم فى الفساد ، فأنتم فيها أسوة وقدوة ، فتبوءون بإثمها و إثم من اتبعكم فيها إلى يوم القيامة .

وفى هذا بيان لأن ما اجترحوه من السيئات مخالف لمقتضيات الفطرة ، ومن ثم لم تتطلع إليه نفوس أحد من البشر قبلهم ، إلى ما فيه من مخالفة لهدى الدين .

( إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ) يراد بالإتيان الاستمتاع الذى عهد بمقتضى الفطرة بين الزوجين ، وداعيته الشهوة وقصد النسل .

وقد سجل عليهم هنا أنهم يبتغون الشهوة وحدها ، فهم أخس من سائر أفراد الحيوان ، لأن الذكور منها تطلب الإناث بدافع الشهوة والنسل الذى يحفظ النوع ، ألا ترى أن الطيور والحشرات تبدأ حياتها الزوجية ببناء الأعشاش فى أعلى الأشجار أو الوُكُن فى قلل الجبال أو الأحجار فى باطن الأرضين ، ولكن هؤلاء المجرمين لا غرض لهم إلا إرضاء شهواتهم ، ومن يقصد اللذة وحدها دون النسل أسرف فيها وانقلب نفعها ضرا وصار خيرها شرا .

وفى هذا مزيد تقريع وتوبيخ لهم ، كأن ذلك لا ينبغى أن يصدر من أحد .

وفى قوله: من دون النساء ، إيماء إلى أنهم تجاوزوا النساء اللاتى هن محل الاشتهاء عند ذوى الفطر السليمة إلى غيرهن .

( بل أنتم قوم مسرفون ) أى إنكم لا تأتون هـذه الفاحشة ثم تندمون على ما فعلتم ، بل أنتم قوم مسرفون فيها وفى سائر أعمالـكم ولا تقفون فيها عند حد الاعتدال ، وقد جاء فى سورة النمل « بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » أى أنتم ذوو سفه وطيش ، وفى سورة العنكبوت «أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ » .

وفى كل هذا دليل على أنهم كانوا مسرفين فى لذاتهم ، متعدين حدود العقل والفطرة ، لا يعقلون ضرر ما يفعلون بجنايتهم على النسل والصحة والآداب العامة ، فهم لو عقلوا ذلك لاجتنبوها ، ولو كان لديهم شىء من الفضيلة لانصرفوا عنها .

(وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون) أى وما كان جواب قومه عن هذا الإنكار وتلك النصيحة شيئا من الحجج المقنعة أو الأعذار المسكتة لثورة الغضب ، بل كان جوابهم الأمر بإخراجه هو ومن آمن معه من قريتهم ، وما حجتهم على تبرير ما عزموا عليه إلا أن قالوا إن هؤلاء أناس يتطهرون و يتنزهون عن مشاركتهم فى فسوقهم ورجسهم ، فلا سبيل إلى معاشرتهم ولا مساكنتهم ، لما بينهم من الفوارق فى الصفات والأخلاق .

وهذا الجواب منهم يدل على منتهى السخرية والتهكم ، والافتخار بما كانوا فيه من القذارة ، كما يقول الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظوهم : أبعدوا عنا هذا المتقشف ، وأريحونا من هذا المتزهد .

وقد بلغ من قبحهم وفجورهم أن يفعلوا الفاحشة و يفخروا بها و يحتقروا من يتنزه عنها ، وهذا أسفل الدركات ، ولا يهبط إليه إلا من لا يؤمن بالله واليوم الآخر .

(فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) يقال غبر أى بقى ، وغبر : ذهب

وهلك ، أى فأنجيناه وأهل بيته الذين آمنوا معه إلا امرأته ، فإنها لم تؤمن به ، بل خانته بولاية قومه الكافرين ، فكانت من جماعة الهالكين أو الباقين الذين نزل بهم العذاب فى الدنيا ، و بعده عذاب الآخرة .

( وأمطرنا عليهم مطرا ) الإمطار حقيقة فى المطر مجاز فيما يشبهه فى الكثرة من خير وشر مما يجيء من السماء أو من الأرض أى وأرسلنا عليهم مطرا عجيبا أمره وهو الحجارة التى رجموا بها ، وجاء فى سورتى هود والحجر إنها حجارة من سجيل مسوّمة أى معلمة ببياض فى حمرة .

وقد يكون سبب إمطار الحجارة عليهم إرسال إعصار من الريح حمل تلك الحجارة وألقاها عليهم ، أوأن تلك الحجارة من بعض النجوم المحطمة التى يسميها علماء الفلك الحجارة النيزكية وهى بقايا كوكب محطم تجذبه الأرض إليها إذا صار بالقرب منها ، وهى تحترق غالبا من سرعة الجذب وشدته ، وهى الشهب التى ترى بالليل ، فإذا سلم منها شيء من الاحتراق ووصل إلى الأرض ساخ فيها وكان لسقوطه صوت شديد ، وقد وجد الناس بعض هذه الحجارة ووضعوها فى دور الآثار .

( فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ) أى فانظر أيها المعتبر هذا القصص وتأمله حق التأمل ، لتعلم عقاب الأمم على ذنوبها فى الدنيا قبل الآخرة .

وهذا العقاب أثر طبيعى لذلك ، فإنك ترى الترف والفسق يفسدان أخلاق الأمم ويذهبان ببأسها ويفرقان كلمتها ويجعلانها شيعا وأحزابا متعادية ، فيسلط الله عليها من يستذلها ويسلبها استقلالها ، ويسخرها لمنافعه ، ولايزال بها هكذا حتى تنقرض وتكون من الهالكين .

وقد يكون هلاكها بسنن الله فى الأرض من إرسال الجوائح كالزلازل والمواد المصطهرة التى تقذفها البراكين من الأرض ، أو بالأوبئة والأمراض الفتاكة ، أو بالثورات والفتن والحروب ونحو ذلك مما يكون سببا فى انقراض الأمم وفنائها

وخلاصة القول فى تحريم هذه الفاحشة :

(١) إنها مفسدة للشبان بالإسراف فى الشهوات .

(٢) إنها مفسدة للنساء اللواتى ينصرف أزواجهم عنهن ويقصرون فيما يجب عليهم من إحصانهن .

(٣) قلة النسل فإن من لوازم ذلك الرغبة عن الزواج والرغبة فى إتيان الأزواج فى غير مأتى الحرث .

وفى الحياة الزوجية الشرعية إحصان كل من الزوجين للآخر بقصر لذة الاستمتاع عليه وجعل ذلك وسيلة للحياة الوالدية التى تنمو بها الأمة ويحفظ بها النوع البشرى من الزوال .

---

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ، ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ، وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ، وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) .

## شرح المفردات

يقال بخسه حقه أى نقصه ، والإفساد : شامل لإفساد نظام الاجتماع بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل ، وإفساد الأخلاق والآداب : بارتكاب الإثم والفواحش ،

و إفساد العمران بالجهل وعدم النظام ، و إصلاحها : هو إصلاح حال أهلها بالعقائد الصحيحة والأعمال الصالحة المزكية للأنفس ، والأعمال المرقية للعمران المحسنة لأحوال المعيشة ، والصراط : الطريق ، وتوعدون: تخوفون الناس ، وروى عن ابن عباس أنهم كانوا يجلسون فى الطريق فيقولون لمن أتى إليهم إن شعيبا كذاب ، فلا يفتننكم عن دينكم ، فكثركم أى بما بارك فى نسلكم .

## المعنى الجملى

شعيب نبى من أنبياء العرب ، وفى التوراة إن اسمه رعوئيل ؛ فقد جاء فى سفر الخروج أن حمى موسى كان يدعى رعوئيل .

( رعو: صديق ، وئيل: الله ) أى صديق الله أى الصادق فى عبادته ، وفى موضع آخر من سفر الخروج إن موسى كان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مدين ، و يثرون لقب وظيفته ، وهو من نسل إبراهيم .

وفى الفصل الخامس من سفر التكوين إن زوجة إبراهيم قطورة ولدت له ستة أولاد منهم مدان أو مدين أو مديان ( معناه خصام ) وكانت أرضهم تمتد من خليج العقبة إلى موآب وطور سينا ، وفى رواية إنها كانت تمتد من شبه جزيرة سينا إلى الفرات .

وقال الألوسى : ومدين وسمع مديان علم لابن إبراهيم الخليل عليه السلام ، ثم سميت به القبيلة .

## الإيضاح

( و إلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ) تقدم مثل هذا فى قصة صالح عليه السلام ، ولكن هناك بين الآية

بأنها الناقة ، ولم يذكر هنا ولا فى أى سورة أخرى آية معينة لشعيب عليه السلام ، ولكن لابد أن تكون له آية تدل على صدقه ، وتقوم بها الحجة عليهم .

فقد روى الشيخان من حديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من الأنبياء نبى إلا أعطى من الآيات ما مثلها آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » أى إن كل نبى مرسل أعطاه الله من الآيات الدالة على صدقه وصحة دعوته ما شأنه أن يؤمن البشر على مثله .

والبينة كل ما يتبين به الحق ، فتشمل المعجزات الكونية والبراهين العقلية ، والأمم القديمة لم تكن تذعن إلا لخوارق العادات .

و بعد أن أتى شعيب صلوات الله عليه بالمعجزات القاطعة للعذر ومكابرة الحق رتب على ذلك قوله :

( فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ) وقد ثنى بالأمر بإيفاء الكيل والميزان إذا باعوا ، والنهى عن بخس الناس أشياءهم إذا اشتروا بعد أن أمرهم بتوحيد الله ، لأن ذلك كان فاشيا فيهم أكثر من سائر المعاصى ومن ثم اهتم به كما اهتم لوط بنهى قومه عن الفاحشة السوءى التى كانت فاشية فيهم ، فقد كانوا من المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس أو وزنوا عليهم لأنفسهم ما يشترون من المكيلات والموزونات يستوفون حقهم أو يزيدون عليه وإذا كالوهم أو وزنوهم ما يبيعون لهم يخسرون الكيل والميزان أى ينقصونه فيبخسونهم أشياءهم وينقصونهم حقوقهم .

والبخس يشمل نقص المكيل والموزون وغيرهما من المبيعات كالمواشى والأشياء المعدودة ، ويشمل البخس فى المساومة والغش والحيل التى تنتقص بها الحقوق ، وفى الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل .

وقد فشا كل من هذين النوعين فى هذا العصر ، فكثير من التجار باخسون مطففون فيما يبيعون وما يشترون ، وكثير من المشتغلين بالعلوم والآداب والسياسة يخاسون لحقوق بنى جلدتهم ، مدعون للتفوق عليهم ، منكرون لما خص الله به سواهم من المزايا والخصائص حسدا عليهم و بغيا .

وقد روى أن قوم شعيب كانوا إذا دخل عليهم الغريب يأخذون دراهمه و يقولون هذه زيوف فيقطعونها ثم يشترونها منه بالبخس أى بالنقصان .

( ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ) أى إنه تعالى أصلح حال البشر بنظام الفطرة ، ومكنهم فى الأرض بما آتاهم من القوى العقلية وقوة الجوارح ، و بما أودع فى خلق الأرض من سنن حكيمة ، وقوانين مستقيمة ، و بما بعث به الرسل من المكملات لنظام الفطرة من آداب وأخلاق ونظم فى المعاملات والاجتماع ، و بما أرشد إليه المصلحين من العلماء والحكماء الذين يأمرون بالقسط ، و يهدون الناس إلى مافيه صلاحهم فى دينهم ، والعاملين من الزراع والصناع والتجار أهل الأمانة والاستقامة الذين ينفعون الناس فى دنياهم .

فعليكم ألا تفسدوا فيها ببغى ولاعدوان على الأنفس والأعراض والأخلاق بارتكاب الإثم والفواحش ، ولاتفسدوا فيها بالفوضى وعدم النظام و بث الخرافات والجهالات التى تقوض نظم المجتمع ، وقد كانوا من المفسدين للدين والدنيا كما يستفاد من هذه الآية وما بعدها .

( ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ) أى ذلكم الذى تقدم من الأمر والنهى خير لكم فى دينكم ودنياكم ، فإن ربكم لايأمر إلا بالنافع ولاينهى إلا عن الضار .

و إنما يكون ذلك خيرا لكم إن كنتم مؤمنين بوحدانية الله و برسوله و بما جاءكم من شرع و بما آتاكم به من هدى ، فالإيمان يقتضى الامتثال والعمل بما جاء به الرسول من عند الله و إن خالف النفس والهوى .

والمؤمن الموحد لايخضع إلا لربه ، وإنما يطيع رسوله لأنه مبلغ عنه كما قال : « مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ » وفى حديث أحمد بن خديج أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « إنما أنا بشر مثلكم، إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر » .

هذا والبشر لم يصلوا فى عصر من العصور إلى عشر ما وصلوا إليه فى هذا العصر من العلم بالمنافع والمضار ومعرفة المصالح والمفاسد فى المعاملات والآداب ، ومع هذا فإن العلم وحده لم يغنهم شيئا ، فكثرت فى البلاد الجرائم من قتل وسلب وإفساد زرع وفسق وفجور ونحو ذلك مما كان سببا فى تدهور نظم المجتمعات .

فخير وسيلة لإصلاح الأمم تربية الأحداث والناشئة تربية دينية بإقناعهم بمنافع الفضائل كالصدق والأمانة والعدل ، وإقناعهم بمضار الرذائل ، لأن الوازع النفسى أقوى من الوازع الخارجى .

( ولاتقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا ) أى ولاتقعدوا بكل طريق تخوفون من آمن بالقتل، وقد روى عن ابن عباس أن بلادهم كانت خصبة وكان الناس يمتارون منهم ، فكانوا يقعدون على الطريق ويخوفون الناس أن يأتوا شعيبا ويقولون لهم إنه كذاب فلا يفتننكم عن دينكم .

وقد رتب سبحانه هذه الأوامر والنواهى على حسب الترتيب الزمنى ، فوجهت الدعوة أولا إلى أقرب الناس فى بلده ، ثم إلى الأقرب فالأقرب من الذين يزورون أرضهم ، وقد كان الأقربون داراً هم الأبعدين استجابة له ، وحين رأوا غيرهم يقبل دعوته ويهتدى بها شرعوا يصدون الناس عنه فلا يدعون طريقا توصل إليه إلا قعد بها من يتوعد سالكيها إليه ، ويصدونهم عن سبيل الله التى يدعوهم إليها ، ويطلبون بالتمويه والتضليل أن يجعلوا استقامتها عوجا ، وهداها ضلالا .

والخلاصة — إنه نهاهم عن أشياء ثلاثة :

(١) قعودهم على الطرقات التى توصل إليه مخوفين من يجيئه ليرجع عنه قبل أن يراه و يسمع دعوته .

(٢) صدهم من وصل إليه وآمن به بصرفه عن الثبات على الإيمان والاستقامة على الطريق الموصلة إلى سعادة الدارين .

(٣) ابتغاؤهم جعل سبيل الله المستقيمة معوجة بالطعن و إلقاء الشبهات المشككة فيها أو المشوهة لها ، وهم بعملهم هـــذا ارتكبوا ضلالتين التقليد والعصبية للآباء والأجداد ، وضلالة الغلوّ فى الحرية الشخصية التى أباحت لهم الطعن فى الأديان حتى بلغوا فى ذلك حد الطغيان .

( واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم ) أى وتذكروا الزمن الذى كنتم فيه قليلى العدد فكثركم الله بما بارك فى نسلكم ، واشكروا له ذلك بعبادته وحده ، واتباع وصاياه فى الحق ، والإعراض عن الفساد فى الأرض . وقد روى أن مدين بن إبراهيم تزوج بنت لوط فولدت فرمى الله فى نسلها البركة والنماء فكثروا .

وقد يكون المعنى — إذ كنتم مقلين فقراء فجعلكم مكثرين موسرين — أو المراد : إذ كنتم أذلة قليلى العدد فأعزكم بكثرة العدد والعُدد .

( وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ) من الأمم والشعوب المجاورة لكم كقوم نوح وعاد وثمود ، وكيف أهلكهم الله بفسادهم و بغيهم فى الأرض ، فاعتبروا بما حل بهم ، واحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم .

( و إن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ) حكم الله بين عباده ضربان :

(١) حكم شرعى يوحيه إلى رسله ، وعليه جاء قوله فى سورة المائدة بعد الأمر بالوفاء بالعقود و إحلال بهيمة الأنعام : « إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ » .

(٢) حكم فعلى يفصل فيه بين الخلق بمقتضى سننه فيهم كقوله فى آخر سورة يونس : « وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » .

والمعنى — وإن كان جماعة منكم صدقوا بالذى أرسلت به من إخلاص العبادة لله وترك معاصيه من ظلم الناس وبخسهم فى المكاييل والموازين ، واتبعونى فى كل ذلك ، وجماعة أخرى لم يصدقونى وأصروا على شركهم وإفسادهم — فاصبروا على قضاء الله الفاصل بيننا وبينكم ، وهو خير من يفصل ، وأعدل من يقضى ، لتنزهه عن الباطل والجور ، وليعتبر كفاركم بعاقبة من قبلهم وسيحل بهم مثل ما حل بأولئك على حسب السنن التى قدرها العليم الحكيم ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا .

اللهم وفقنا للسير على سنن العدل والرشاد ، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

وكان الفراغ من مسودة هذا الجزء فى الثامن عشر من رجب المعظم سنة ثلثين وستين وثلثمائة هجرية .

وصل ربنا على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .